مهما كانت حياتك بسيطة.. فإنها تتعقد بمرور الزمن

بكين.. بكين

شيو تسي تشين

ترجمة: يحيى مختار







بكين.. بكين

بكين.. بكين

Running Through Beijing

跑步穿过中关村

شيو تسي تشين

徐则臣

ترجمة: يحيى مختار

الطبعة الأولى: 2016

رقم الإيداع: 2016/7848

الترقيم الدولي: 9789773192693

الغلاف: محمد حافظ

تحرير: علي حامد

شكر خاص للفنان **محمد وهبة** على صورة السيجارة في النص



60 شارع القصر العيني - 11451 - القاهرة

ت : 27921943 - 27954529 فاكس : 27947566

www.alarabipublishing.com.eg

شيو تسي تشين

بكين.. بكين

رواية

ترجمة عن الصينية: يحيى مختار



تم شراء حقوق النشر بموجب العقد الموقع مع



中阿典籍互譯出版工程
مشروع تبادل الترجمة والنشر بين الصين والدول العربية

B&R Book Program

بطاقة فهرسة

تشين ، شيو تسي
بكين.. بكين: رواية من الأدب الصيني / تأليف شيو تسي تشين ، ترجمة يحيى مختار – القاهرة، ط1 : العربي للنشر والتوزيع ، 2016 ،
ص ؛ سم .
تدمك 9789773192693
1- القصص الصينية
أ- مختار ، يحيى (مترجم)
ب- العنوان 895,13

1



"لقد خرجت، أنا حر!".

هكذا صرخ "دون هوانج" بأعلى صوته. في تلك اللحظة هبَّت عاصفة ترابية أدخلت الغبار في أنفه وعينيه وفمه؛ فبدأ يعطس ويفرك عينيه. بعدها ارتفع صوت ارتطام الباب الحديدي وهو يُغْلَق خلفه. بصق "دون هوانج" الغبار من فمه. ابتعدت العاصفة. مال برأسه ناظرًا إلى السماء التي بدت مليئةً بالضباب خلف بقعةٍ من الغبار الأصفر. كانت الشمسُ شاحبةً كقطعةِ زجاجٍ مُعْتَم أو كَمِرْآةٍ نحاسيةٍ قديمةٍ مُهْمَلَة. كان ضوؤها خافتاً لا يؤذي العين، إلا أنه تسبب في انهمار الدموع من عينيّ "دون هوانج"؛ فمهما كان الضوءُ خافتاً فهو ضوء الشمس على أي حال. هبت أمامه عاصفة مرةً أخرى، لكنه استدار بجسده كي يتفاداها هذه المرة. الأيام القليلة الماضية كان رفاقه بالداخل يتحدثون عن أمرين؛ الأول هو خروجه من السجن، والثاني هو العواصف الرملية. كان "دون هوانج" قد

شاهد مثل تلك العواصف الرملية أثناء وجوده بالداخل؛ حيث رأى الغبار الأصفر يكسو السلالم والنوافذ، ولكن المكان كان صغيراً لكي يكتشف ماهيتها. ولو كان يستطيع لعاد مرةً أخرى وأخبر رفقاءه قائلاً:

– هل تريدون معرفة ماهية العواصف الرملية؟ إذن عليكم أن تخرجوا إلى العالم الرحب.

بدت أمام عينيه بقعة جرداء من الأرض. عدة أشجار ما لبثت براعمها الصغيرة أن أورقت، ولم تكن هناك أي آثار أخرى للحياة. ربما دُفِنَتْ الحشائش الخضراء تحت التراب، فَكَّرَ "دون هوانج" أن يركل الأعشاب الجافة بقدميه. مَدَّ رأسَه مُتفحصاً، ولكنه لم يرَ أي أثر للحشائش الخضراء. يا إلهي! مرت ثلاثة أشهر، كيف لم تنبت خلالها أي عشبة خضراء؟! شَعَرَ بالهواء البارد يضرب جسده؛ فأخرج معطفاً من حقيبته وارتداه، ثم حَمَلَ الحقيبة على ظهره، وصاح بصوتٍ عالٍ:

"لقد خرجت، أنا حر!"

صَرَّتْ البوابة الحديدية حين فُتِحَتْ، وأطل أحد الحرَّاس برأسه من خلف الباب. نظر "دون هوانج" إليه وقال ضاحكاً:

– إلى ماذا تنظر، عُد إلى موقع حراستك.

رمقه الحارس بعينيه، وتوارى خلف الباب ثانيةً حين أغلقه.

سَارَ "دون هوانج" على قدميه مدة عشرين دقيقة، واستوقف إحدى عربات النقل الصغيرة العابرة إلى جانبه. سأله السائق:

- إلى أين تذهب؟

أجابه "دون هوانج":

- خُذني معك إلى أي مكان.. المهم أن يكون داخل مدينة بكين.

قام السائق بإنزاله عند المحور الرابع للمدينة، ومضى في طريقه إلى سوق السيارات في منطقة "ليو لانج تشوانج". ما إن هبط "دون هوانج" من العربة؛ حتى شَعَرَ بأن هذا المكان مألوف له. من المؤكد أنه جاء إلى هنا من قبل. سار "دون هوانج" جهة الجنوب ثم انعطف غرباً، وهناك شاهد أحد محلات البقالة التي اشترى منها سجائر ماركة "تشونج نان هاي" من قبل. بخلاف العاصفة الرملية لم يطرأ على بكين أي تغيير بالنسبة له. شعر بالطمأنينة؛ فدائماً ما كان يُسَاوره القلق بأن بكين سوف تتغيَّر معالمها خلال فترة مكوثه في السجن. اشترى علبة سجائر ثم سأل البائعة الشابة إذا ما كانت تتذكره أم لا، ابتسمت له البائعة قائلة:

- وجهك يبدو مألوفاً.

- نعم.. لقد اشتريت من عندكم أربعة علب سجائر من قبل.

وعندما هَمَّ بالمغادرة؛ سمع الفتاة تتمتم: "شخص مخبول!".

لم يلتفت لها ؛ حيث قال مُحَدِّثاً نفسه، "لا داعي للجدال مع فتاة بهذا القبح". سار بمحاذاة الطريق. ولأنه كان يعرف أنه أشبه بالمتسولين، سار عكس الطريق وهو يهز حقيبته التي يحملها على ظهره يميناً ويساراً؛ قائلاً في نفسه، "سير المارة عكس الاتجاه لا يُعَد مُخَالفاً للقانون". ومشى مُتَمَهِّلاً مُستمتعاً بتدخين سيجارته. كان من الصعب أن يدخن في السجن مثلما كان الحال في البيت أيضاً. ففي المرة الأولى التي أحضر معه

كرتونتين من سجائر "تشونج نان هاي" إلى البيت؛ كاد والده أن يُجن من شدة الفرح. وفي كل مرة يأتي فيها ضيوف إلى البيت؛ كان يستعرض أمامهم قائلاً:

– سجائر من نوع "تشونج نان هاي". اسم المكان نفسه الذي يسكن فيه كبار رجال الدولة، وجميعهم يُدَخِّنون هذا النوع.

مَرَّ "دون هوانج" أمام بوابة "تشونج نان هاي"،حيث يسكن كبار رجال الدولة، عندما كان ذاهباً لمشاهدة مراسم رفع العلم في الصباح الباكر. في ذلك اليوم استيقظ في الرابعة فجراً؛ حيث وَبَّخَه صديقه "باو دينج" قائلاً:

– لماذا لا تذهب لمشاهدة مراسم رفع العلم في يوم آخر، ألا ترى أن الجو مكسو بالضباب!

انتشر الضباب في ذلك اليوم، وكان عليهما أن يذهبا في الصباح لتسليم بضاعتهما؛ إلا أنَّ كل ما يشغل بال "دون هوانج" هو الذهاب لمشاهدة مراسم رفع العلم. عندما جاء إلى بكين قَرَّرَ أن يعمل مع "باو دينج"، وعادةً ما راوده حلمين؛ الأول هو أن يجني أموالاً وفيرة، والثاني هو أن يذهب في الصباح الباكر لمشاهدة مراسم رفع العلم، وسماع أصوات أقدام جنود حرس الميدان المتناسقة وهي تُدَوِّي في الأرجاء. في ذلك اليوم ركب دراجته العتيقة بسرعة كبيرة، ومَرَّ أمام بوابة لامعة فضية اللون وبدا له كما لو أنه رأى بعض الجنود خلف تلك البوابة. لكنه لم يتوقف واستمر في طريقه. لم يكن يعرف أن هذا المكان هو "تشونج نان هاي" إلا بعد عودته، عندما حَدَّث "باو دينج" بما شاهده؛ ليُخبره هذا بأن هذا المكان

هو "تشونج نان هاي". حينها شَعَرَ بالندم لأنه لم يتوقف لمشاهدة هذا المكان. بعد ذلك كان دائماً يُخَطِّط للذهاب مرةً أخرى، وفي كل مرة كانت تبوء خطته بالفشل. تماماً مثل هذه المرة حين قال له "باو دينج":

- ألا يمكنك الذهاب في يوم آخر.. لكن ذلك اليوم الآخر لم يأتِ قط.

لم يكن "دون هوانج" يعرف إلى أين يذهب؛ بل إن مجرد التفكير في هذا الأمر يقتله. كل الرفقاء في السجن؛ "باو دينج"، و"دا تزوي"، و"آن شين"، و"سان وان" الأعرج. لم يتبقَ هنا أحد ممن يعرفهم، ومجرد العثور على مأوى أصبح مشكلة بالنسبة له. كما أنه ليس لديه أي نقود؛ فقط خمسون يواناً، أنفق منها تسعة يوانات وستين فينا لشراء علبة السجائر. حسناً، سأرى أين تأخذني قدماي، وبعد أن تمر هذه الليلة سأفكر إلى أين أذهب، من المؤكد أنني سأتمكن من العثور على مأوى. كانت الشمس على وشك الغروب خلف الأفق الشاحب الذي يبدو كورقة صنفرة، وبدت له عند نهاية الشارع وكأنها سوف تهوي فوق مدينة بكين. نَفَخَ "دون هوانج" دخان السجائر من فمه محاولاً أن يستجمع قواه، قائلاً:

- كل شيء سيكون على ما يرام.

تَذَكَّر ما حدث يوم جاء إلى بكين، واستقبله "باو دينج"، ثم فقد أثره واضطر للنوم أسفل كوبري "شوي لي" حاضنًا حقيبته حتى الصباح.

تَجَوَّلَ "دون هوانج" ماراً بمستشفى الولادة ثم سوق "تشونج قوان تسون" للإلكترونيات، ومطعم "باي جيا"، ومركز مراقبة الزلازل، والتفت برأسه ليجد أمامه كوبري "هاي ديان". توقف قليلاً، فلم يكن يرغب في أن يأتي إلى هذا المكان. وبالرغم من أنه لا يعرف إلى أين يذهب إلا أنه لا يحب هذا المكان؛ فهنا أُلقي القبض عليه هو ورفيقه "باو دينج". في ذلك اليوم لم يتمكنا من الفرار. كانا مُتلبسين. لو كان يعرف أنهما لن يتمكنا من الفرار؛ لأسرع بإلقاء ما بحوزته بعيداً، ولكنه قال لرفيقه "باو دينج":

– لا تقلق، هذان الشرطيان سمينان لدرجة أنهما لم يتمكنا من ربط حزام البنطلون.

وعلى عكس ما توقعه "دون هوانج"؛ تمكن الشرطيان من اللحاق بهما. ولأن الطريق كان مسدودًا حينها، لم يتمكنا من التخلص مما كان بحوزتهما.

حدث ذلك قبل ثلاثة أشهر. الجو كان بارداً، والجميع يستعد لاستقبال عيد رأس السنة الصينية. واليوم، هو خرج من السجن ولا يزال "باو دينج" محبوساً. لا يعرف ما إذا كان الجرح الذي أصاب الذراع الأيسر لـ "باو دينج" أثناء المطاردة قد التأم أم لا.

حَوَّلَ "دون هوانج" وجهته نحو شارع آخر، ومنه إلى شارع ثالث، كانت العاصفة الرملية مُحَمَّلة بالتراب، احتمى منها أسفل أحد المباني، بينما انتشر الظلام. نَفَضَ الغبار عن ملابسه. فجأةً شاهد فتاة تحمل على ظهرها حقيبة كالتي يحملها، وتتجه نحوه قائلة:

- هل تريد شراء أسطوانات الأفلام يا سيدي؟

ثم أخرجت من حقيبتها أسطوانة مدمجة وتابعت قائلة:

- لدي جميع أنواع الأفلام؛ أفلام هوليوود، أفلام يابانية، أفلام كورية، أفلام محلية شهيرة، وأيضاً أفلام كلاسيكية قديمة، وأخرى حاصلة على جوائز الأوسكار.

ثم أخرجت إحدى الأسطوانات من غلافها الملوَّن ووضعتها أمام عينيه. شَعَرَ "دون هوانج" بدفءٍ غريب وهو ينظر إلى ألوان تلك الأسطوانات تحت ضوء الشارع الخافت. لكنه يعرف أن هذه الأسطوانات تحوي أفلاماً بريئة تماماً مثل وجه تلك الفتاة الذي صار جافاً من شدة الرياح. بدت الفتاة كأنها تشعر بالبرد؛ لأن نبرات صوتها كانت مُتَقَطِّعة كشخصٍ يكتم بكاءه. بدت له فتاة طيبة. لم يستطع أن يُخَمِّن عمرها، ربما كانت في الرابعة والعشرين أو الخامسة والعشرين، السابعة والعشرين أو الثامنة والعشرين.. ولكن المؤكد أنها لم تتجاوز الثلاثين. فاللاتي تجاوزن الثلاثين غالباً ما يحملن طفلاً صغيراً ويعترضن المارة قائلين: "هل تريد أسطوانات؟ يوجد أفلام إباحية عالية الجودة"، ثم يُخْرِجن الأسطوانات من جيوب خفية داخل ملابسهن. أجابها "دون هوانج":

- ليس عندي مكان أشاهد فيه هذه الأفلام.

ثم مَالَ بجسده للخلف مُلتصقاً بالجدار. قالت الفتاة:

- يمكن تشغيل هذه الأقراص على مُشَغِّل الأسطوانات والكمبيوتر أيضاً.. سأبيعها لك بسعر رخيص؛ فقط ستة يوانات للأسطوانة الواحدة.

ألقى "دون هوانج" حقيبته على الأرض، وهَمَّ بالجلوس ليستريح قليلاً.

اعتقدت الفتاة أنه يريد انتقاء بعض الأسطوانات لكي يشتريها؛ لذلك جلست هي الأخرى، وأخرجت كومةً من الأسطوانات من حقيبتها ووضعتها أمامه بحركاتٍ سريعةٍ، قائلةً:

- كُلّها بحالةٍ جيدة، جودة لا مثيل لها.

شَعَرَ بالخجل أمام إصرار الفتاة؛ فقال:

- وهو كذلك، أعطني واحدة.

شكرته الفتاة؛ وأردفت:

- أي واحدة تريد؟

أجابها:

- كما تشائين، المهم ألا يكون فيلماً مُمِلاً.

نظرت إليه الفتاة قائلة:

- إذا كنت لا تريد أن تشتري.. فليس هناك مشكلة.

أجابها:

- ومن قال إني لا أريد أن أشتري؟ اعطني اثنتين؛ لا بل اعطني ثلاث.

وحتى لا تشعر الفتاه بالريبة، قام "دون هوانج" بانتقاء ثلاث أسطوانات؛ "سارق الدراجة"، و"سينما باراديسو الجديدة"، و"عنوان مجهول". قالت الفتاة بصوتٍ يُخَالِطه التعجب:

- لم أتخيل أنك من هواة الأفلام؛ فهذه الثلاثة من الكلاسيكيات الرائعة.

أجابها:

- لستُ من هواة الأفلام؛ بل أشاهدها أحياناً لكسر الملل.

حقيقة الأمر أنه بالفعل ليس من هواة الأفلام. لقد شاهد قبل ذلك فيلم "سارق الدراجة". أمَّا "سينما باراديسو الجديدة"؛ فإنه سمع بعض الطلبة الجامعيين يتحدثون عنه داخل الأتوبيس. واختار فيلم "عنوان مجهول" بسبب غموض الاسم.

بعد أن اشترى الأسطوانات، جلس على الرصيف وتطلع عبر الشارع إلى لافتة بأضواء النيون على أحد المباني؛ مكتوب عليها "أكاديمية هاي ديان للشطرنج". شاهد الاسم من قبل مرات عديدة. أخرج سيجارة من جيبه ثم أشعلها ونفث الدخان تجاه لافتة النيون المضيئة.

جمعت الفتاة أسطواناتها داخل الحقيبة وهَمَّتْ بالمغادرة ثم نظرت إليه قائلة:

- ألن تغادر؟

أجابها قائلًا:

- اذهبي أنتِ، سأجلس هنا لأستريح قليلاً.

شَعَرَ "دون هوانج" أنه لا داعي لأن يُخبر شخصاً لا يعرفه بأنه ليس لديه مأوى يذهب إليه.

سارت الفتاة بضع خطوات مُغَادِرة المكان ثم ما لبثت أن رجعت مرةً أخرى، وجلست على الرصيف بجانبه. تزحزح "دون هوانج" بجسده قليلاً مُفْسِحاً لها المكان. سألته الفتاة:

- هل معك المزيد من السجائر؟

نظر إليها "دون هوانج" مُتعجباً ثم أعطاها علبة السجائر والولاعة. قالت الفتاة:

- سجائر "تشونج نان هاي" ذات مذاق جيد.
هَزَّ "دون هوانج" رأسه مُوَافقاً على كلامها.

لدى"دون هوانج" الكثير من الخبرات في التعامل مع الغرباء، ولكنها كلها معاملات تجارية من أجل المال فحسب، لذا شَعَرَ بالغموض حيال تلك الفتاة. استغرق في الصمت لبرهة، لكنه يعرف أنه لا يوجد ما يثير القلق، وليس لديه ما يخسره، فقد خرج حالاً من السجن. شَعَرَ بالاسترخاء ثم سأل الفتاة:

- كيف حال تجارتِك؟

أجابته:

- ليست على ما يرام؛ الجو عاصف، وأولئك المتسكعين جميعهم مختبئين في بيوتهم، ولا أحد يشترى الأسطوانات سوى المتسكعين.

قال لها:

- يبدو أنك على دراية بأحوال هذه المهنة.

هو يعرف جيداً أن أمثالها من الباعة الجائلين يعتمدون في تجارتهم بالدرجة الأولى على الطقس؛ ففي حال هبوب العواصف أو سقوط الأمطار لا يوجد أحد يهتم بشراء مثل تلك الأشياء.

بدا من طريقة تدخينها أنها معتادة على التدخين. استمرا جالسين بينما الليل يحل ويختفي المارة من الشوارع شيئاً فشيئاً. سَمِعَ صوت أحدهم داخل محل البقالة المجاور يقول:

- هيا نغلق المحل، لن يخرج أحد للشراء في هذا الجو العاصف.

تبعه صوت إغلاق الباب الحديدي المنزلق مُرتطماً بالأرض الإسمنتية. قال "دون هوانج":

- جو عاصف، يا لها من مبالغة.

كان حريصاً على أن يتجنب النظر إلى الفتاة، ولم يكن يعرف ماذا يقول لها. لم يكن مُعْتَاداً على الحديث مع فتاة لا يعرفها. كان أمراً مُحْرجاً بالنسبة له، ولذلك فَكَّرَ في المغادرة. قاطع صوت الفتاة تفكيره:

- ماذا تعمل؟

أجابها:

- في اعتقادك ما هو عملي؟

سألته:

- هل أنت طالب؟ ربما ..

أجابها:

- أنا بدون عمل، فقط شخص متشرد بلا مأوى.

شَعَرَ "دون هوانج" حينها أن الصدق سهل كالكذب تماماً.

قالت الفتاة:

- أنت تمزح.

ثم استطردت قائلة:

- على أي حال، متشرد بلا مأوى ليس بالأمر السيء، ما رأيك أن نذهب للشراب، على حسابي؟

ابتسم "دون هوانج" قائلاً في نفسه، "ها أنتِ أفصحتِ عن هُويتك الحقيقية، يا لكِ من قَوَّادَة".

في الحقيقة لم يكن "دون هوانج" ممن يترددون على أماكن البغاء، ولكن "باو دينج" و"سان وان" الأعرج كانا دائما التردد على تلك الأماكن. وكان قد سمع منهما الكثير من القصص حول خدع الفتيات للإيقاع بالزبائن. ولكن كيف لفتاة كهذه أن تُمَارِس مثل هذا العمل؟ شَعَرَ "دون هوانج" بالحيرة حيال هذا الأمر، ولكنه فَكَّرَ قليلاً "قرأتُ في الجرائد أن معظم من يقمن بهذه الأعمال طالبات بالجامعة". طالبات بالجامعة! ... يا له من شرف أن يكون الشخص طالباً جامعياً. ولكنهم يخونون هذا الشرف. تَذَكَّرَ السيدات اللاتي يحملن أطفالاً صغاراً، ثم فَكَّرَ في قرارة نفسه "أنا كالعجل المذبوح.. فلماذا أخاف من السلخ؟"، استجمع شجاعته ثم قال:

- وهو كذلك.. هيا بنا ولكن على حسابي أنا، وعليكِ أن تختاري المكان فأنا غريب عن هنا.



2



قالت الفتاة:

- ما رأيك في تناول بعض الطعام الساخن، فالجو بارد للغاية؟ وافقها "دون هوانج". ومن ثم ذهبا إلى مطعم "قو لاو دا" للقدر الساخن. لم يكن "دون هوانج" يتوقع أن هبوب هذه العاصفة الرملية حَوَّلَ مدينة بكين من الربيع الدافئ إلى الشتاء البارد. شاهدا زجاج المطعم من الخارج يعلوه البخار المتكثف الناتج عن القدور الساخنة. ظلال الزبائن بالداخل تبدو كالأشباح. المطعم مكتظ بالزبائن الذين احمرت وجوههم من الشراب، وكأن نصف سكان بكين يأكلون بالداخل، يشربون كميات هائلة من البيرة، ورائحة الخمر تملأ المكان، ورائحة القدر الساخن ممزوجة بحرارة الأنفاس تطفو فوق الأجواء. لم يعش "دون هوانج" مثل هذا الجو الدافئ المألوف، منذ ثلاثة أشهر. وكان الحنين يقتله لمثل هذه الأجواء. لم يعد يتذكر متى كانت آخر مرة تناول فيها القدر الساخن؛ فهو مُولع به.

حتى إنه عندما غادر بكين عائداً إلى مسقط رأسه للمرة الأولى كي يقضي العيد ـ اشترى من مدخراته القليلة جهازاً لهذا القدر يعمل بالكهرباء. وظل يأكل منه الطعام كل يوم بدايةً من ليلةِ العيد حتى سادس أيامه، ثم رَجَعَ إلى بكين.

اختارا ترابيزة في إحدى الزوايا ليجلسا حولها. الفتاة بجوار الحائط، بينما "دون هوانج" في الجهة المقابلة. هو يحب الطعام الحار؛ لذلك طلب قدر "يوان ينج" الحار، وثلاث زجاجات من بيرة "يان جينج" التي تشتهر بها بكين. أخذ القدر في الغليان، وبدأ اللحم يطفو فوق سطح الشوربة الساخنة. رفع "دون هوانج" كوب البيرة قائلاً:

– ماذا نقول في مثل هذه المواقف؟

أجابته الفتاة:

– لا شيء، فقط نشرب البيرة.

فرغت الفتاة من تناول الكأس الأول وبدا عليها أنها معتادة على الشرب. أما هو فكانت لديه مقدرة عالية على الشرب، ويعتقد أن هذه هي أفضل ميزاته، ولا يعرف الكثيرون تلك الحقيقة؛ حتى "باو دينج" الذي يعتقد أنه أكثر منه قدرةً على الشرب.

قال "دون هوانج":

– لديكِ قدرة لا بأس بها على الشراب.

ردت الفتاة قائلة:

– وأنت كذلك.

– لا، أنا لا أصلح لشرب البيرة؛ لأنه عادةً ما أسكر بعد شرب زجاجة

واحدة فقط.

- أوكي، أريد أن أراك وأنت سكران.

لم تلحظ الفتاة مهارته وسرعته في شُرب البيرة، ثم تابعت:

- لنشرب حتى نسكر.

بعد ذلك استغرقا في الشرب. كان المشهد خلف البخار المتصاعد من القدر الساخن يُوحي بأنهما حبيبان خرجا ليتواعدا. لقد كان "دون هوانج" محروماً من مثل تلك الأجواء لثلاثة أشهر، وهو ما جعله يطلق العنان لنفسه مُنهمكاً في تناول الطعام والشراب.

قالت الفتاة:

- يبدو أنك كنت تتضور جوعاً.

توقف عن الأكل ثم نظر إليها قائلاً:

- ليس إلى هذا الحد.

بدا وجه الفتاة لامعاً وردي اللون، وهو ما جعلها تبدو أصغر مما كانت عليه عندما التقيا وقت العاصفة منذ قليل، كما أنها بدت أجمل بكثير.

رن جرس تليفونها. فتحت حقيبتها مُتعجلة لتُخرجه منها، ولكنها لم تتمكن من الرد. لوهلةٍ، بان عليها اليأس. أمسكت المحمول في يدها تُقَلِّبه يميناً ويساراً ثم وضعته على الترابيزة. سألته الفتاة:

- ما اسمك؟

- اسمي "دون هوانج".

- اسم جميل، ولكن هل هذا اسمك الأصلي؟

مازحها قائلاً:

- طبعاً اسمي الأصلي. إذا لم يكن أصلياً.. من حقِك أن تطلبي تغييره وفقاً لشروط الضمان.

- من أطلق عليك هذا الاسم؟ يبدو أن هناك مغزى وراء تلك التسمية.

- والدي. ولا يوجد أي مغزى من تلك التسمية؛ ليس لها علاقة باسم بلدة مقاطعة "قانسو" المشهورة بالكهوف البوذية. فوالدي رجل أُمِّي، كيف له أن يفكر في مغزى المسميات. ولكنني سمعتُ أمي تقول إنه يوم ولدت؛ شَعَرَ أبي بالحيرة الشديدة فلم يكن يعرف أي اسم يختار لي. واستمرت حيرته إلى أن ذهب عند أحد الجيران ووجد عنده نسخة من جريدة الشعب اليومية مكتوب على إحدى صفحاتها بالخط الأسود العريض؛ كلمتي "دون هوانج".. ومن هنا جاءت التسمية.

- لا أعرف ماذا أقول عن والدك.. يعرف تماماً أنه على وشك أن يُولد له طفل، فلماذا لم يختر اسماً لطفله مبكراً؟

ثم سألته مبتسمة:

- هل لك أن تُخَمِّن ما اسمي؟

- وكيف لي أن أعرف؟!

- اسمي "كوانج شيا". ما رأيك في اسمي؟ هل يبدو لك لطيفاً؟

- نعم اسم جميل، أفضل من اسمي بكثير.. عندما أُفَكِّر في معنى اسمي؛ أشعر وكأني صخرةٌ اقْتُلِعَتْ من أرضٍ صحراوية.

ضحكت الفتاة ثانيةً، ولكن بطريقةٍ مُتعمدة هذه المرة ثم قالت:

- "كوانج" هو اسم عائلة أبي، و"شيا" هو اسم عائلة أمي. وكوانج" بمعنى المكان الواسع الفسيح، و"شيا" بمعنى الصيف.

في الحقيقة لم يكن "دون هوانج" يعتقد أن هذا اسم جيد. العالم مليء بالأسماء، فلماذا يكون اسم الشخص مُكَوَّناً من اسمي عائلتي الأب والأم معاً دون سواهما من الأسماء. لكنه اضطر لقول ذلك من أجل إرضائها. كما أنه امتدح مهنة بيع الأسطوانات؛ قائلاً إنه عندما جاء إلى بكين كان ينوي بيع الأسطوانات ولكنه لم يجد مدخلاً لتلك التجارة، لذلك لا يزال يشعر بالأسف حتى الآن. سألته الفتاة.

– وما عملك الحالي إذن؟

– ليس لي عمل محدد، أحيانًا أعمل وأحيانًا بلا عمل. بكين كبيرة للغاية. أعتقد أنه لن يموت هنا أحد من الجوع.

– ولماذا لا تعود إلى بلدتك؟ هل بكين جميلة لهذه الدرجة؟

– الموضوع لا يتعلق بكونها مدينة جميلة أم لا، كلها أرض واحدة وسماء واحدة.

حَوَّلتْ نظرها ناحية التليفون الموضوع على الترابيزة ثم صمتت قليلاً، وقالت بنبرةٍ حزينة:

– لولا بيع الأسطوانات لرجعت إلى بلدتي، فأنا لا أحب الأجواء هنا.

رد عليها قائلاً:

– فعلاً الأجواء هنا ليست جيدة، ولكنها مُفَضَّلة لدى الكثيرين.

رن جرس أحد التليفونات. نظرت "كوانج شيا" إلى تليفونها، لكنه لم يكن هو. شَعَرَ "دون هوانج" أنها تتنظر مكالمة من شخصٍ ما، أو ربما هناك ما يشغلها. ثم قال لها:

- أوكي.. أعتقد أنني انتهيت من الطعام. أنا سعيد جداً بمعرفتك. ثم نادى على عاملة المطعم يطلب منها فاتورة الحساب.

- ولا يهمك، سأدفع أنا الحساب، لقد اتفقنا أن الطعام على حسابي. قالت هذا ثم أخرجت محفظتها من الحقيبة.

حَرَكَ "دون هوانج" رأسه رافضاً، وبدا كأنه جاد في رفضه؛ فوضعت "كوانج شيا" محفظتها مرةً أخرى داخل الحقيبة. شَعَرَ هو بالارتباك وقال في نفسه: "ورطتني تلك الفتاة"، ثم تظاهر بأنه يبحث عن النقود داخل معطفه المُعَلَّق على ظهر الكرسي والعرق يتصبب من جسده. لم يكن أمامه سبيل آخر سوى أن يقوم بإحدى الحيل التي عَلَّمها "باو دينج" له. أخذ يبحث في جيوبه يميناً ويساراً مُتَظاهراً بالاستغراب ثم نهض واقفاً وقال بلهجة المصدوم:

- فقدتُ متعلقاتي؛ محفظتي والتليفون المحمول!

وقفت الفتاة هي الأخرى قائلة:

- هذا غير معقول، كيف حدث ذلك! ابحث مرةً أخرى.

تظاهر "دون هوانج" بالبحث ثانيةً ثم رفع معطفه أمام عينيّ "كوانج شيا" والعاملة، وأخرج جيوب المعطف الفارغة لكي يُثبت صحة كلامه. ثم قال:

- لا بد أن أحدهم سَرَقَ متعلقاتي. عندما دخلتُ إلى المطعم كانت كلها بحوزتي.

ثم حَوَّلَ نظره نحو العاملة قائلاً بلهجةٍ صارمة:

- هناك سارق داخل مطعمكم!

عاملة المطعم فتاة صغيرة في الثامنة أو التاسعة عشرة من العمر، أصابها المشهد بالخوف ثم تراجعت مذهولةً إلى الخلف تُحَرِّك يديها بحركات غير مفهومة وهي تقول:

- لا يوجد سارق بالمطعم.

وكأنها تخشى أن تكون هي المتهمة بالسرقة. أشفق عليها "دون هوانج" عندما رآها في تلك الحالة، ولكنه كان مُضَطراً للاستمرار في خدعته.

توقف الزبائن عن تناول الطعام واستداروا برؤوسهم لمشاهدة ذلك الشخص الذي سُرِقَتْ مُتعلقاته. استمر "دون هوانج" في التظاهر بحرفية حتى لا ينكشف أمره. سألته "كوانج شيا":

- هل أنت متأكد أنك لم تضع متعلقاتك داخل الحقيبة؟

- نعم متأكد، وكان بالمحفظة ما يزيد على ستمائة يوان، لا أتذكر تحديداً كم. كما كان في داخلها كارت البنك الخاص بي وبطاقة الهوية وكارت شحن للتليفون فئة خمسين يواناً؛ كل ذلك سُرِقَ مني. المال غير مهم، ما يهمني هو بطاقة الهوية؛ فاستخراج واحدة جديدة ليس بالأمر السهل. وتليفوني لا يزال جديداً؛ اشتريته منذ شهر واحد فقط بأكثر من ألف يوان.

تعمَّد أن يظهر في صورة المجروح، وقد ساعد ذلك على جذب أنظار جميع الزبائن بالمطعم نحوه. أسرعت العاملة لتطلب من مدير المطعم أن يحضر. في تلك الأثناء اكتشفت "كوانج شيا" أن العاملة لم تقم بتغطية المعطف بغطاء الكرسي؛ حيث جرت العادة في مثل هذه المطاعم أن يُعَلِّق الزبون

معطفه على ظهر الكرسي، وأن يقوم العامل بتغطية المعاطف بغطاء صُنِعَ خصيصاً لذلك حتى لا يتسخ أو يتعرض للسرقة. قالت "كوانج شيا":

- لو كانت العاملة غطت المعطف لما سُرِقَتْ تلك المتعلقات، إذاً فالمسئولية تقع على عاتق المطعم.

عندما سمع المدير هذا الكلام اعترف بخطأ العاملة، ولكنه أردف قائلاً:

- مكتوب على الباب أن المطعم غير مسئول عن متعلقات الزبائن الشخصية.

أبدى "دون هوانج" و"كوانج شيا" اعتراضهما على كلام المدير، قالا:

- لو كان المعطف مُغَطّى لما سُرِقَتْ تلك المتعلقات. نحن لا نريد أن نتسبب في متاعب، ولكن هذا ما حدث ومن يدري هل كان ذلك مقصوداً أم لا!

شَعَرَ المدير بضعف موقفه، فقال لهما:

- نعتذر لضياع مُتعلقاتكما، وعوضاً عن ذلك سوف نُقَدِّم لكما الوجبة مجانًا؟

قالت "كوانج شيا":

- أوكي.. لا توجد مشكلة.

ولكن "دون هوانج" قال:

- من قال ذلك؟ بالطبع هناك مشكلة، عليهم أن يعطونا خمس زجاجات من البيرة على الأقل.

قال مدير المطعم:

- يا سيدي هذا أقصى ما يمكنني فعله.

- أوكي، لتُرسل في طلب صاحب المطعم، أريد أن أتحدث معه.

تردد المدير لبرهة ثم انصرف. بعدها قامت "كوانج شيا" بسؤال "دون هوانج" عن رقم تليفونه الذي سُرِقَ كي تتصل به لتعرف هل ما زال موجوداً بالمطعم أم لا. أخبرها "دون هوانج" رقماً ما، اتصلت به فوجدت التليفون مُغْلَقَاً. قالت له:

- لا يوجد أمل، عليك نسيان هذا الأمر.

- لقد فقدت الأمل بالفعل.

الرقم الذي أعطاه لها منذ ثلاثة أشهر هو بالفعل رقم تليفونه الذي كان يستخدمه قبل أن يدخل السجن. والله وحده يعلم أين يوجد تليفونه الآن. بعد دقيقتين عاد إليهما مدير المطعم برفقة العاملة التي حملت معها خمس زجاجات من البيرة، ثم اعتذر لهما مرةً ثانية قائلاً:

- صاحب المطعم مشغول الآن ولن يتمكن من الحضور، فطلب مني أن أُبلغكم اعتذاره.

لم يُبد "دون هوانج" أي اعتراض. نظر إلى "كوانج شيا" قائلاً:

- أنا مُحْرَج للغاية.. كنتُ أنوي دفع الحساب، ولكن يبدو أنني تسببت لكِ في هذه الخسارة.

- لا داعي للحرج.. من البداية طلبت أن يكون الطعام على حسابي.

نظرت إلى تليفونها مرةً أخرى، ثم دسته في جيبها وطلبت من العاملة أن تفتح لهما زجاجات البيرة الخمس، وقالت له:

- علينا أن ننتهي من شرب هذه الزجاجات الآن.

- فكرة صائبة؛ فأنا لم أكتفِ من الشراب بعد.

كانت هذه هي البداية. بدأت "كوانج شيا" تشرب بنهم. كأس يتلوه

آخر. لا تتوقف فقط إلا لتقول: "في صحتك". بدأت تسكر شيئاً فشيئاً ثم مالت برأسها على الترابيزة.

سألها "دون هوانج":

- هل أنتِ بخير؟

- نعم.. أنا بخير، لنستمر في الشراب.

صمتت قليلاً، وانخرطت في البكاء قائلة:

- أريد أن أعود إلى البيت.. هل لك أن تُوَصلني إلى البيت؟

- لا بأس سأوصلك إلى البيت.. هيا بنا.

من حُسن الحظ أنها كانت واعية بعض الشيء بما يكفي أن تُخبره بعنوان بيتها.

كان "دون هوانج" على معرفة تامة بجميع شوارع حي "هاي ديان"، كما لو كان قد نشأ في بكين. كانت "كوانج شيا" تسكن في شقة صغيرة بالدور الثالث؛ استأجرتها بأحد المباني في منطقة "فو رونج لي". أوصلها "دون هوانج" إلى هناك، وما إن فتح الباب حتى شاهد كمية من الحقائب الكبيرة والصغيرة مملوءة بالأسطوانات، مُلْصَق على كل حقيبة منها ورقة مكتوب عليها نوعية الأسطوانات الموجودة بها سواء أكانت غربية أم هندية أم كورية أم دراما أم حركة.. وغيرها. استلقت "كوانج شيا" على السرير مُغْمَضة العينين فيما أخذ هو يبحث في الحقائب عن أسطوانات جنسية أو إباحية، ثم سمعها تقول:

- أريد أن أشرب بعض الماء.. أشعر بالعطش الشديد.

ذهب "دون هوانج" إلى المطبخ ليحضر لها القليل من الماء، فوجد زجاجة المياه فارغة. رجع مسرعاً وقال لها:

– اصبري قليلاً حتى أقوم بِغَلْي بعض الماء.

قام بِغَلْي بعض الماء، ولما رجع إليها وجدها مُسْتَغرِقة في النوم وقد لفت نفسها بالغطاء؛ ومن شدة التعب تصدر منها أصوات الشخير. وضع زجاجة الماء على الترابيزة، وجلس على كرسي خشبي قديم في انتظار أن يبرد الماء. كانت الشقة قديمة وغير مُرَتبة. وبخلاف السرير الذي تنام عليه "كوانج شيا"؛ لا يوجد سوى ترابيزة كبيرة وكرسي خشبي. وهناك جهاز تليفزيون قديم فوق الترابيزة، ومُشَغِّل أسطوانات شبه جديد. غير ذلك لا يوجد سوى حقائب الأسطوانات. ظل يتلفت حوله يميناً ويساراً لبعض الوقت، ثم شرب كوباً من الماء. لم يكن يريد أن يقضي ما تبقى من هذه الليلة على هذا الحال؛ بمعنى آخر كان يفكر أين يجد ملاذاً يبيت فيه. سمع صوت الشخير الصادر من "كوانج شيا"، لحظتها أشفق على نفسه أنه بلا مأوى. هكذا استقر به الوضع بعد عامين قضاهما في بكين. وكلما استغرق في التفكير؛ شَعَرَ بالخيبة والحسرة. فمنذ عامين ترك عمله في بلدته وقرر الذهاب إلى بكين مُفعماً بالأمل في عيشةٍ أفضل، أما الآن فإن حياته صارت أسوأ من ذي قبل. لا يوجد في جيبه سوى اثنين وعشرين يواناً وأربعين فينا.

استمر "دون هوانج" يبحث في حقائب الأسطوانات؛ عله يجد أسطوانات إباحية ولكنه لم يفلح حتى في العثور على أسطوانات من تلك التي تحوي مشاهد خليعة. فقط بعض أفلام قصص الحب التي يُوجد على

أغلفتها صور لممثلات بملابس تُظهر الكتفين والذراعين والقدمين، ولكنه يعرف أن هذه صور لإثارة انتباه المشتري؛ فربما يحتوي الفيلم بأكمله على لقطة واحدة كتلك التي على الغلاف. وفي النهاية اختار فيلماً فرنسياً عنوانه "مخرج الأفلام الجريئة"؛ مُعتقداً أنه ربما كان به بعض المشاهد الساخنة. فتح جهاز مُشَغِّل الأسطوانات وقام بإغلاق الصوت، وبدأ في مشاهدة الفيلم خلسة. شاهد أكثر من نصف الفيلم، ولم يكن فيه ولا مشهد واحد من المشاهد الساخنة. شَعَرَ بالملل، وبدأ النوم يتسلل إليه فاستسلم له وهو جالس على الكرسي. استيقظ فجأة ليجد أن الفيلم قد انتهى وخرجت الأسطوانة تلقائياً من المُشَغِّل، واصطبغت شاشة التليفزيون باللون الأزرق يتوسطه اسم ماركة الجهاز باللون الأبيض.

أشارت عقارب الساعة إلى الثانية والنصف بعد منتصف الليل. أغلق التليفزيون ومُشَغِّل الأقراص. شَعَرَ بالبرد وبعض الألم في الظهر بسبب النوم جالساً على الكرسي. نظر إلى "كوانج شيا". وجدها نائمة على أحد أطراف السرير مُتخذة وضع القرفصاء كالقطة النائمة، وقد توقفت عن الشخير. فَكَّرَ "دون هوانج" قليلاً، وقال في نفسه: ليحدث ما يحدث. أخرج معطفه من الحقيبة، وبهدوء استلقى بجسده على الطرف الآخر من السرير مُتَّخِذَاً وضع القرفصاء هو الآخر. غَطَّى رأسه والجزء الأعلى من جسده بالمعطف؛ حينها شَعَرَ أن الظلام سَادَ الكون، واستغرق في نومٍ عميق.

3



استيقظ "دون هوانج" من نومه مُحَاوِلاً أن يفتح عينيه بصعوبة بسبب الضوء. وعندما فتح عينيه تملكه الخوف؛ لأن هناك عينان تُحَدِّقان به. استفاق ليجد نفسه نائماً على طرف سرير شخص آخر وجسده مُغَطًّى بغطاءٍ ناعم. كانت "كوانج شيا" تُحَدِّق به ممَّا أشعره بالحرج. هَمَّ بالجلوس ولكن "كوانج شيا" ألصقت شفتيها بشفتيه في قُبْلَةٍ طويلة ودفعته ببطء إلى الخلف ليستلقي على السرير مرةً أخرى.

كان ذلك مفاجئًا له. لقد شاهد في حياته الكثير من الأفلام الإباحية، ومارس مثل تلك الأمور في خيالاته وأحلامه كثيراً، أما في الواقع فليس له أي تجارب أو خبرات سابقة. ظهر عليه الارتباك والحيرة، ولكن "كوانج شيا" أخذت تتجاوب معه وتهيئ له الوضع شيئاً فشيئاً إلى أن عرف ماذا عليه أن يفعل. بدأ يستفيق أكثر فأكثر، وصارت الخبرات التي شاهدها في الأفلام وفي خيالاته وأحلامه تتحول إلى واقع. وانخرطا معاً في علاقتهما

الحميمة بصمت.

بعد أن فرغا من علاقتهما الحميمة، استلقى "دون هوانج" على ظهره وقد شَعَرَ بالاسترخاء التام، وخُيِّل له أن سقف الغرفة لم يعد موجوداً، فقط السماء زرقاء والسحب بيضاء، وليس هناك أي أثر للعاصفة الرملية.

ساد الصمت المطبق بينهما، فلم يكن يُسمع بالغرفة سوى صوت عقارب المنبه الموجود بجانب السرير.

بعد فترةٍ من الصمت، سألته "كوانج شيا":

- هل أنا جميلة؟

أجابها "دون هوانج":

- نعم.. بالفعل أنتِ جميلة.

صمتت لفترة قليلة ثم سألته مرةً ثانية:

- كم عمرك؟

- الخامسة والعشرين.

- أنت في عُمر أخي الأصغر. أنا الآن ثمانية وعشرين.

شَعَرَ "دون هوانج" بالأسف تجاه هذه الفتاة المستلقية بجانبه على السرير، فقال لها متلعثماً:

- في الحقيقة، إنني أمارس مهنة تزوير الأوراق.

قالت ضاحكة:

- يا لها من مصادفة، أنت تُزَوِّر الأوراق وأنا أبيع الأسطوانات المقلَّدة، إذاً نحن زملاء في المهنة نفسها.

عندما رآها تضحك، استطرد قائلاً:

- لقد خرجت لتوي.

لم يبد عليها أي نوع من الاستغراب. صمتت قليلاً وقالت:

- اسمي الحقيقي " شياو رونج".

حاول "دون هوانج" الالتفات إليها ولكنه تمالك نفسه ثم سمعها تقول:

- "كوانج شيا" هو الاسم الذي أنوي أن أُطلقه على طفلي.

شَعَرَ "دون هوانج" ببعض الضيق والتفت إليها قائلاً:

- أنتِ متزوجة؟

- لا ليس بعد، ولكن حبيبي اسمه "كوانج"، وأنا اسمي "شيا"، لذا سوف أُسمى طفلي المستقبلي "كوانج شيا".

شَعَرَ "دون هوانج" أنه لا ينبغي عليه أن يستمر في الاستلقاء على السرير بتلك الحالة. نهض من فوره وأسرع مُرتدياً ملابسه ثم ذهب إلى دورة المياه. جلس على التواليت مُرتدياً سرواله وأشعل سيجارته. وعندما فرغ من تدخينها، خرج من دورة المياه. أخرج من جيبه اثنين وعشرين يواناً وأربعين فينا هي كل ما يملكه من مال ليضعه أسفل طفاية السجائر الموجودة على الترابيزة. التفت خلفه فوجد "شياو رونج" تنظر إليه وهي لا تزال مستلقية على السرير.

قالت له:

- أريد أن أشرب بعض الماء.

أحضر لها كوباً من الماء ووضعه أمامها، فمدت يدها من أسفل الغطاء وأمسكت بيده قائلة:

- هل لديك حبيبة؟

شَعَرَ "دون هوانج" بمزيج من اليأس والإحباط لكنه قال لها:

- نعم لدي حبيبة.

بالطبع هو ليس لديه حبيبة ولكنه شَعَرَ أن عليه أن يقول ذلك. أحياناً يتذكر تلك الفتاة التي تُدْعَى "تشي باو" تلك التي حَدَّثَه عنها "باو دينج" عندما دخلا السجن وأوصاه أن يبحث عنها ويقوم برعايتها. لم يكن "دون هوانج" يعرفها، فقط شاهدها مرةً واحدةً من الخلف، حين كان ذاهباً إلى غرفة "باو دينج"؛ فلمح فتاةً شابةً طويلة القامة ذات مؤخرة ممتلئة تخرج من عنده. حينها أخبره "دون هوانج" أن اسمها "تشي باو"، وهي أيضاً تعمل بمهنة تزوير الأوراق، ولم يُخبره شيئاً آخر خلاف ذلك.

وبلهجة الأم التي تسأل ابنها عن حبيبته، قالت وهي لا تزال مُمسكة بيده:

- هل هي جميلة؟

- عادية، ليست من النوع القبيح الذي يسد النفس عن الطعام.

سحبت يدها وعادت لتلف نفسها بالغطاء وهي تبتسم. صمتت قليلاً ثم قالت:

- كنت تشبه أخي الصغير تماماً وأنت واقف بالخارج. هو شخص فاشل لا يعرف ماذا يفعل في حياته، ويكاد القلق يقتل والديّ بسببه. وتابعت قائلة:

- عندما تكون هناك فرصة احضرها إلى هنا لكي أتعرف عليها فأنا مثل أختك الكبرى.

أصبحت فجأة أخت كبرى، قال "دون هوانج":

- ولكني لا أعرف أين هي الآن.

- مادامت في بكين ستتمكن من العثور عليها.

صمتت قليلاً ثم سألته:

- هل تريد أن تعرف لماذا ذهبتُ معك لتناول الشراب؟

لم يرد عليها "دون هوانج".

أردفت قائلة:

- تشاجرت أنا وحبيبي، لأنه يقول إنى فتاة مملة.

ثم تابعت:

- أريد أن أعود إلى بلدتي وأنجب طفلاً وأعيش حياةً مستقرة، وهو يريد أن يفارقني لهذا السبب.

- ولهذا كنت تنتظرين أن يهاتفك؟

- نعم.

- في الحقيقة، أنا لا أستطيع أن أفهم.

- لا تستطيع أن تفهمني أنا أم هو؟

- لا أستطيع أن أفهمك أنتِ.

شعرت "شياو رونج" بالغضب فجأةً وصاحت في وجهه بنبرةٍ حادةٍ:

- اخرج من هنا، أنتم الرجال جميعكم أنانيون.

- وهو كذلك، سأخرج من هنا.

وحَمَلَ حقيبته وهَمَّ بالمغادرة، حينها نادت عليه بنبرةٍ أقل حدة تطلب منه أن ينتظر. ثم طلبت منه أن يلتفت بوجهه إلى الناحية الأخرى حتى

ترتدي ملابسها ثم مدت يدها بورقةٍ من فئة مائة يوان، قائلة:

- هذا كل ما معي، وأنت في حاجة إلى هذا المال أكثر مني الآن.

لم ينطق "دون هوانج" بكلمة. أخذ المال وهَمَّ بالمغادرة، وفي طريقه أخذ الاثنين وعشرين يواناً وأربعين فينا التي تركها أسفل طفاية السجائر ووضعها في جيبه.

بالنسبة لـ"دون هوانج"، كانت ساعة الصباح هي أفضل أوقات ذلك اليوم؛ فبعدها كان مضطراً لمواجهة العاصفة الرملية بالخارج. كانت الشوارع مليئة بالأشخاص الذين يرتدون النظارات والكمامات والأقنعة. حمل حقيبته عازماً على الذهاب إلى منطقة "شي يوان"؛ حيث كان يسكن مع "باو دينج" منذ ثلاثة أشهر. تظاهرت صاحبة السكن بأنها لا تعرفه، فبعد أن أُلقى القبض عليه هو و"دون هوانج"، جمعت متعلقاتهما وقامت ببيع كل ما يمكن بيعه وألقت الباقي في القمامة، كما أنه لا يزال هناك مدة تزيد على الشهر حتى تنتهي مدة الإيجار. استشاط "دون هوانج" غضباً بسبب ما فعلته، واتهمها بأنها لا تهتم سوى بمصلحتها فقط دون مراعاة لمصالح الآخرين. وأمام ثورته اعترفت بما فعلته، لكنها قالت:

- ألا تخجل من الحضور إلى هنا مرةً ثانية؟ لقد تسببت لنا في فضيحة بعدما جاءت الشرطة تفتش في هذا المكان بسببك أنت وصديقك.

- هل تعرفين معنى الخجل؟ من قال في البداية إنه لا يهتم أيّاً كان العمل الذي نمارسه ما دمنا ندفع الإيجار في موعده؟

- ومن كان يدري أنكم سوف تتسببون في جلب الشرطة إلى هذا المكان؟

وسمعها "دون هوانج" تتمتم كأنها تقول: "كيف خرجت بهذه السرعة؟".

كانت في نيته أن يعود ليرى إذا ما كان هناك شيء يصلح للاستخدام أم لا، وربما يعود ليستأجر هذا المكان مرةً ثانيةً فيما بعد. ولكن الآن تخلى عن هذه الفكرة.

قال لها:

- بالنسبة للأمتعة فهذا غير مهم. المهم الآن أنه تبقى لنا شهر على انتهاء مدة الإيجار، وعليكِ أن تردي قيمة إيجار هذا الشهر، ثمانمائة يوان؛ فأنت الآن لديك زبائن جُدد وقد قمتِ بتحصيل هذا المبلغ مرتين.

- ثمانمائة يوان؟ من أين لي أن أدفع لك هذا المبلغ! ثم أردفت بلهجة المرأة المجروحة:

- أمي مريضة وأنا استدنت الكثير من المال لعلاجها، كيف لي أن أدفع لك ثمانمائة يوان؟!

-إذا لم يكن معك مال.. اذهبي واقترضي من البنك، لا علاقة لي بهذا الموضوع.

- ولكني ليس معي مال بالفعل.

ثم أخرجت تليفونها من جيبها لترد عليه وهي تتجول يميناً ويساراً وتقول:

- يا إلهي، في الرعاية المركزة، أوكي أنا في طريقي إلى المستشفى الآن.

ثم وضعت التليفون في جيبها وقالت بصوت ملئ بالحزن:

- يا أخي، أرأيت، أمي بحالةٍ خطرة وعليّ الآن الذهاب إلى المستشفى على الفور، وحالياً ليس معي مال كافٍ، ثم أخرجت من جيبها ورقة من

فئة المائة يوان وقالت خُذ هذه معك، وكأنك ساعدتني في علاج أمي.

تنهد "دون هوانج" ثم مد يده واختطف المائة يوان من يدها، قائلاً في نفسه "مائة يوان أفضل من لا شيء". غادرت صاحبة السكن قائلة إنها ستذهب إلى المستشفى، ساعتها شعر "دون هوانج" ببعض الندم، وفَكَّرَ أن عليه أن يرد المائة يوان إليها مرةً ثانية، فماذا لو كانت بالفعل في أمس الحاجة لهذا المال لعلاج والدتها. ثم تذكر فجأة أنها كانت أخبرته هو و"باو دينج" قبل ذلك، عندما جاءا لاستئجار السكن، أن والديها تُوفيا وأن ابنها أصبح يافعاً وأنها ليست في حاجةٍ مُلِحَّةٍ للمال ولذا فلن تجادل معهما بخصوص قيمة الإيجار. ساعتها شَعَرَ بالغضب الشديد، وتذكر أيضاً أنه لم يسمع صوت رنين أو حتى صوت اهتزاز تليفونها. إنها تقوم بهذه التمثيلية لكيلا تدفع له المال كله، يا لها من عجوز مُخَادِعة.

حَمَلَ حقيبته وذهب في إثرها لكنها كانت قد اختفت تماماً، شَعَرَ بالغضب أكثر فأكثر، ثم التقط بعض الحجارة الصغيرة من على الأرض وظل يقذف بها فوق سطح بيتها، وكلما رمى حجراً منها قال: مائة، مائتين، ثلاثمائة.... وعند آخر حجر قال:

- سبعمائة أيتها العجوز الشمطاء.

بعد ذلك ذهب إلى أماكن أخرى عديدة؛ بحثاً عن رفقاءه السابقين الذين يعملون في مهنة تزوير الأوراق، ولكنه لم يجد أحداً منهم؛ فمنهم من غادر مكانه ومنهم من أُلقى القبض عليه. فَكَّرَ "دون هوانج" أنهم ربما تفرقوا،

فقد قال له "باو دينج" ساعة دخولهم السجن إنه ربما وشى بهما أحد ما، وإلا لم يكن ليقبض عليهما معاً. ولكن من هذا الذي وشى بهما، لا أحد يعرف، فهناك الكثير ممن يمارس هذه المهنة في بكين، ولكل منهم منطقته التي يعمل بها ويفرض سطوته عليها. من قُبِضَ عليه منهم لا سبيل له أن يعثر على ذلك الواشي، ومن استطاع الهرب فقد اتعظ مما حدث وغادر مكانه. ولكن لا بديل عن البحث أمام "دون هوانج"، فلا سبيل آخر أمامه، وعليه أن يستمر في هذه المهنة. انقضى اليوم بأكمله ولم يعثر على وجه مألوف لشخص واحد يعرفه، ناهيك عن تلك الفتاة "تشي باو" التي شاهدها من الخلف ولا يتذكر سوى مؤخرتها فقط؛ حتى إنه لو رأى وجهها فمن غير المؤكد أن يتعرف عليها.

بحلول السابعة والنصف مساءً، لم يكن "دون هوانج" قد تناول سوى قطعة من الخبز وزجاجة من الماء. ركب الأتوبيس ثم نزل عند محطة "وادي السيليكون"، وما إن وطأت قدماه الأرض حتى شَعَرَ أنه لا يوجد مكان آخر يذهب إليه. ذهب مرةً أخرى إلى منطقة "فور رونج لي"؛ حيث تسكن "شياو رونج". وقف أسفل البيت الذي تسكن فيه وشاهد الضوء مُنارًا فعرف أنها بالداخل. دق على الباب الذي لم يكن مُوصداً، ولكن لم يفتح أحد. قام بدفع الباب ودخل من تلقاء نفسه. عندما رأته "شياو رونج"، قالت له:

- عدت ثانيةً!

- جئتُ لأعيد لكِ المال.

شاهدته "شياو رونج" والتراب يغطى وجهه وملابسه. كان في حالةٍ مُزرية، وكأنه عائد حالاً من أحد مواقع البناء. سألته:

- كيف أصبحت غنياً بهذه السرعة.. هل قمت بسرقة أحدهم أم سطوت على أحد البنوك؟

قال لها متهكماً:

- لا هذا ولا ذاك.. قمتُ بتزوير بعض الأموال.

فتح جيب حقيبته ليخرج النقود ولكنه لم يجدها. بحث مرةً ثانيةً ولكن بلا جدوى. شَعَرَ بالدهشة وقال:

- أنا متأكد أنني وضعت النقود في هذا الجيب.. أين ذهبت؟

- كف عن التمثيل.. هل تريد أن تُخبرني أنك سُرِقتْ مرةً ثانيةً؟

أحس "دون هوانج" بالحرج، واحمر وجهه من الخجل، وقال لها:

- مرةً ثانيةً؟ هل كنتِ تعرفين حقيقة ما حدث بالأمس؟

- هل تظن أنني حمقاء لهذه الدرجة. عندما اتصلت على رقم التليفون الذي أخبرتني به؛ ظهر أنه رقم غير موجود بالخدمة، وليس مُغلقاً كما أخبرتك.

- أنا آسف بالفعل، أرجوكِ أن تقبلي اعتذاري.

استمر في البحث عن النقود داخل الحقيبة؛ حينها اكتشف وجود ثقب في جيب الحقيبة، فعرف أن أحدهم سرق نقوده. لم يكن مضطراً لأن يشرح لها أنه تعرض للسرقة هذه المرة، ثم مد يده في جيب معطفه وأخرج المائة يوان التي أعطتها له ووضعها أمامها على الترابيزة قائلاً:

- شكراً لكِ.

وحمل حقيبته واتجه للخروج.

عندما وصل أسفل البيت شَعَرَ بالتعب الشديد. جلس على درج السلم وأشعل سيجارة. وحين انطفأ النور، شَعَرَ بالعزلة والوحدة. أنوار كل البيوت مُضاءة، ومنافذ التدفئة بالداخل تمد ساكنيها بالدفء، والجميع لا يعرفون طعم تسلل الهواء البارد داخل الملابس. شَعَرَ وقتئذ أنه لدى "شياو رونج" الحق فيما قالته؛ فكل ما تطلبه هو بيت خاص بها تعيش فيه، تريد زوجاً وطفلاً، تريد أن يكون لديها عائلة.. ما الخطأ في ذلك؟ لم يكد ينتهي من تدخين سيجارته حتى فَكَّرَ في نفسه أن ذلك الوغد الذي يُدْعَى "كوانج" يجب أن يُلقن درساً لن ينساه. سمع صوت أقدام تنزل على درج السلم. نهض واقفاً ليفسح الطريق أمام الشخص القادم، وهَمَّ برمي سيجارته بعيداً مُغَادراً المكان، وسمع صوت أحدهم يناديه:

- توقف!

استدار بوجهه ليجد "شياو رونج" في ملابس النوم واقفة أسفل ضوء السلم؛ حيث قالت له:

- ارجع معي إلى البيت.

لم يتحرك، فتابعت قائلة:

- لنفترض أن أحدهم سرق أموالك.

- ليس مُفترضاً؛ بل هذا ما حدث بالفعل.

- أوكي، لقد سرق أحدهم أموالك، ارجع معي إلى البيت.

صَعَدَ "دون هوانج" معها إلى البيت، بينما سارت أمامه وهي تقول:

- أنت عنيد تماماً مثل أخي الأصغر.

- من قال إنى عنيد؟

- أنا، وعندما أقول أنت عنيد فأنت بالفعل عنيد. ولكن أتمنى ألا تكون فاشلاً مثل أخي.

دخلا معاً إلى البيت، بينما ذهبت هي إلى المطبخ لتطهو له المكرونة بالبيض، وجلس هو في الغرفة يُحَدِّثها بصوتٍ عالٍ عن حكاية قيامه برمي بيت صاحبة السكن القديم بالحجارة. كانت تضحك بالداخل وهي تقول إنه مشاغب أكثر من أخيها. تناول "دون هوانج" الطعام ثم ذهب ليستحم بالماء الساخن. ارتدى ملابس نظيفة وخرج ليجد "شياو رونج" قد أغلقت التليفزيون واستلقت على السرير. سألها "دون هوانج" مُتردداً:

- ألن يعود ذلك المدعو "كوانج"؟

قالت ببرود:

- لن يعود.

انتابه شعور بالفرحة. صعد إلى السرير وأزاح الغطاء عنها. في البداية كانت "شياو رونج" تبكي، ولكنها توقفت عن البكاء بعد ذلك، إلا أنها ظلت صامتة. ولكي يكسر "دون هوانج" ذلك الصمت؛ سألها بخبث:

- هل تبيعين أسطوانات الأفلام الإباحية؟ لقد بحثت عنها ولم أجدها.

قالت على مضض:

- أقوم بإخفائها تحت السرير.

4



استيقظ "دون هوانج" في صباح اليوم التالي. كان أول ما سمعه هو صوت قرقعة الأواني في المطبخ. فَكَّرَ لبرهة أن ذلك الشخص المدعو "كوانج" هو الذي كان من المفترض أن ينام في هذا المكان. حينها شَعَرَ بالعرق يتصبب من جسده. قالت له "شياو رونج" قبل ذلك إن اسمه "كوانج شان"، وقتها فَكَّرَ أن من أطلق عليه هذا الاسم هو شخص جاهل أو كسول مثل والده. بدا له الأمر مُسَلياً بعض الشيء. خرجت "شياو رونج" من المطبخ ثم سألها "دون هوانج" ثانيةً:

– هل سيعود ذلك الشخص أم لا؟

– هل أنت خائف؟

– وما الداعي للخوف، على أسوأ الأحوال سأعود للسجن مرةً أخرى.

– أوكي، لا تسألني عنه ثانيةً، فأنا لا أعرف هذا الشخص.

نهض "دون هوانج" من فراشه قائلاً:

- أوكي، وأنا أيضاً لا أعرف هذا الشخص.

بعد أن انتهيا من تناول الطعام، لم يسأل أحدهما الآخر ماذا ينوي أن يفعل اليوم، ثم خرجا سوياً. حملت "شياو رونج" حقيبة الأسطوانات، فيما حمل هو حقيبته التي تحوي كل ممتلكاته، وافترقا عند ملعب "هاي ديان" الرياضي دون وداع.

تَجَوَّلَ "دون هوانج" طوال اليوم بلا هدف، ولم يصادف في طريقه أي شخص يعرفه. لم يتناول سوى قطعتين من الخبز وزجاجة مياه. وبحلول المساء ركب الأتوبيس عائداً إلى منطقة "فو رونج لي". استقبلته "شياو رونج" بابتسامتها المعتادة ثم ذهبت إلى المطبخ لتطهو له المكرونة كالأمس؛ ولكن اليوم أضافت إليها بيضتين بدلاً من واحدة. لم تكن هناك عاصفة ترابية كالأمس. اغتسل "دون هوانج" على استعجال ثم خرج مسرعاً ونظر تحت السرير ليجد حقيبتين مليئتين بالأسطوانات. مَدَّ يده وأخرج منها أسطوانتين فوجد على غلافهما صورتان مختلفتان لفتاتان عاريتان.

خلال الأيام الثلاثة اللاحقة، كان "دونج هوانج" يأكل ست قطع من الخبز ويشرب ثلاث زجاجات من المياه، ويتجول في اليوم الواحد عدة جولات حول بكين ليعثر على أي شخص يعرفه ولكن بلا فائدة. شَعَرَ بفقدان الأمل، وعاد في النهاية إلى "فو رونج لي".

بدا يائساً عندما فتحت "شياو رونج" له الباب، لذا قالت له:

- لا تذهب ثانيةً بلا هدف، إذا لم يكن في ذلك إحراج بالنسبة لك، لتذهب معي غداً لبيع الأسطوانات.

في صباح اليوم التالي خرجا معاً. حمل "دون هوانج" حقيبة الأسطوانات، وسارت هي بجانبه. عندما مرا بالبوابة الغربية لجامعة بكين، قال لها "دون هوانج" بلهجة ساخرة:

- كنتُ طالباً جامعياً يحترمه الناس، وها أنا اليوم بائع متجول أبيع الأسطوانات.

كان بالفعل طالباً مُجتهداً ويحصل على أعلى الدرجات قبل أن يتعلم اللهو مع أصدقاء السوء.

قالت له "شياو رونج":

- يمكنك ألا تبيع الأسطوانات، فها هو باب الجامعة مفتوح على مصراعيه.

- عليّ أن أبيع الأسطوانات لأضمن لنفسي لقمة العيش.

- طيب، اعتقدت أن مجرد قولك إنك طالب جامعي سيضمن لك لقمة العيش.

- لو كان ذلك ممكناً لاكتفيت بالقول إني طالب جامعي طوال الوقت.

قاما بفرش بضاعتهما على جانب الطريق في منطقة "شي يوان" أمام أحد الأسواق. كانت حقيبة "شياو رونج" متعددة الاستخدام؛ بمجرد فتحها تُصبح على هيئةِ فَرْشٍ للبضاعة. كانت على دراية كاملة بكل أنواع الأسطوانات. ما إن ينطق الزبون اسم الأسطوانة، حتى تُسرع بإخراجها من وسط الاسطوانات في ثوانٍ معدودة. أحياناً يطلب أحدهم أفلاماً لمخرج

بعينه، هنا تجد مشكلة في العثور على تلك الأسطوانة. إنها تعرف فقط تلك الأسطوانات التي شاهدتها مُسبقاً، ويمكنها أن تشرح للزبون قصة الفيلم كاملةً. أما خِلافاً لذلك فإن الأمور تكون صعبة بالنسبة لها. وإذا ما طلب أحدهم أسطوانات لأفلام الحركة والحروب المنتجة في هونج كونج، يصير الدور على "دون هوانج"، لأنه قضى فترة دراسته الثانوية والجامعية يشاهد مثل تلك الأفلام؛ ومنها أفلام لـ"جاكي شان" و"تشو يون"؛ شاهدها مراراً وتكراراً بسبب حالة الملل. وبالمقارنة مع "شياو رونج"؛ فهو لديه القدرة على الخوض في الحديث مع الزبائن وجذب انتباههم. لقد تعلم ذلك عندما كان يمارس مهنة تزوير الأوراق.

بعد الظهيرة ذهبا معاً إلى كلية الزراعة، كان على درايةٍ تامةٍ بهذا المكان؛ لأنه كان دائم التردد عليه في الماضي. فالطلاب أكثر احتياجًا لتزوير الأوراق من باقي المواطنين؛ وخاصةً عندما يكونون على وشك خوض سباق سوق العمل حيث كانوا يأتون بأعداد كبيرة لطلب تزوير شهادات الدرجات، وشهادات التقدير. ومنهم من تصل به الجرأة إلى طلب شهادات تخرج جامعية: طلبة بكالوريوس يطلبون شهادات ماجستير، وطلبة ماجستير يطلبون شهادات دكتوراه. وهناك من يطلبون العكس؛ فتجد طلاب دكتوراه تقدموا في السن يطلبون شهادات بكالوريوس حديثة لاستخدامها في الحصول على تذاكر بنصف السعر للمزارات السياحية والمتنزهات. وعلى حد وصف "شياو رونج"، فإن معظم أولئك الطلاب مُهتمون بشراء أسطوانات الأفلام؛ وخاصةً أولئك المهتمون بالفن الذين

عادةً ما يهتمون بالأفلام الكلاسيكية القديمة، فكلما كان الفيلم قديماً إزداد الطلب عليه. لم يبدُ ذلك منطقياً لـ"دون هوانج"، فهو لا يحب مشاهدة الأفلام القديمة ذات اللونين الأبيض والأسود؛ بل إنه يشعر بالنعاس حين يشاهدها.

كان يوماً مُرْهِقَاً. وبدا "دون هوانج" وكأنه مُلِم بهذه المهنة. فلقد باعا عدداً لا بأس به من الأسطوانات.

قالت له "شياو رونج":

- لم أكن أعلم أنك ماهر لهذه الدرجة.

- هل نسيتِ أنني كنتُ أعمل في تزوير الأوراق، وهي مهنة تعتمد على إقناع الزبون.

- طيب، من الآن فصاعداً ستكون مساعدي في بيع الأسطوانات الخاص بي، ما رأيك؟

- موافق، مساعد ورفيقك أيضاً.

لحظتها بدا الغضب على وجهها؛ فشعر "دون هوانج" أنه ما كان ينبغي عليه قول ذلك، وحاول أن يُبَرِّر لها أنه لم يقصد شيئاً، بينما كان يقول في نفسه: "نحن بالفعل رفقاء في السرير، ما الداعي للإنكار؟".

خُلاصة القول؛ كان "دون هوانج" مساعدًا بمعنى الكلمة، يقوم بِعَدّ المال، ويعمل على تسويق البضاعة، كما أنه يعمل حارساً شخصياً. والأهم من ذلك أنه كان يجعلها سعيدة في أوقات حزنها، وأسعد في أوقات سعادتها إذا كانت الأمور تستدعي ذلك. والأمور التي تستدعي ذلك دائماً

ما تكون على علاقة بـ"كوانج شان"، فحين يراها شاردة الذهن يتلفت حوله ليرى إذا ما كان هناك حبيبان يسيران متشابكي الأيدي، أو عائلة من زوجين وطفل يتجولون في الجوار. حينذاك يقول لنفسه: "أنا بحالٍ أفضل، على الأقل لا علاقة لي بمثل هذه الأمور". في مثل تلك الأوقات، كان دائماً ما يُشعل سيجارة ثم يسحب منها نفساً عميقاً حتى يسعل وهو يقول لنفسه، "أنا بحالٍ أفضل".

هو الآن يمارس مهنة بيع الأسطوانات؛ وعليه أن يشاهد المزيد من الأفلام ليساعده ذلك في عملية البيع. ولكنه غالباً ما يشاهدها ليلاً ثم يغلبه النعاس؛ فتتحوَّل إلى مَشَاهِد في أحلامه؛ منها مشاهد الرومانسية، العنف، الرعب، وعلى الأغلب مشاهد الجنس. ولم يكن يفهم لماذا لا تقوم "شياو رونج" ببيع الأسطوانات الجنسية التي تخبئها تحت السرير؟ ولما سألها عن ذلك، قالت له:

- "كوانج شان" هو من يبيع هذه الأسطوانات.

لأنها كانت تشعر بالحرج تجاه ذلك.

- وما الحرج في ذلك.. الطبقة العاملة من الشعب في حاجة إلى مثل تلك الأشياء.

- وما أدراك أنهم في حاجةٍ إليها؟ أنت الذي في حاجة لها.. أليس كذلك؟

- أنا في حاجةٍ لها، وهم كذلك. فنحن جزء من الشعب. ألم تشاهدي أولئك السيدات اللاتي يحملن أطفالهن وينادين على المارة من الشباب: "أيها الأخ هل تريد أسطوانات؟ يوجد أفلام مثيرة".

قام بتقليد حركاتهن ببراعة؛ فلم تتمالك "شياو رونج" نفسها من الضحك. بعدها تظاهرت بالغضب قائلة:

- أوكي، فأنا في نظرك مثل هؤلاء السيدات.. أليس كذلك؟

- ومن قال ذلك.. "شياو رونج" فتاة جميلة وشابة، تبيع الأسطوانات الفنية فقط، كيف يمكن مقارنتها بهؤلاء السيدات المتقدمات في السن؟!

رمقته بنظرة غاضبة وقالت:

- أعرف أنني أكبر منك سناً، كما أنى جاهلة لم أُكمل حتى تعليمي الثانوي، أما أنت فكنت طالباً جامعياً.. ولا وجه للمقارنة بيننا.

نظر إليها مُبتسماً وقال:

- أرأيتِ، أنتِ الآن غاضبةً مني، ما الخطأ في أن أقول إنكِ شابة وجميلة؟

- حتى البيض لم يستطع أن يسد فمك المفتوح دائماً.. اذهب لكي تغسل الأطباق.

ذهب "دون هوانج" ليغسل الأطباق، شَرَدَ ذهنه قليلاً، فقد كان يفكر في أسطوانات الأفلام الإباحية. إنها ليست سهلة البيع كأسطوانات الأفلام العادية. ليس هناك من لديه الجرأة لعرضها أمام أعين الزبائن، وأسعارها عالية، تكاد تصل إلى ضعف سعرها الأصلي. كان يفكر بجدية في هذا الأمر، فهو يتوق إلى كسب الكثير من المال، ولا يريد أن تستمر حياته على هذا المنوال. فهو لم يجيء إلى بكين، في البداية، ليعيش هذه الحياة الصعبة. كما أنه يفكر في زميله "باو دينج" الذي لا يزال سجيناً.

"باو دينج" يكبره بخمسة أعوام، وقد جاء إلى بكين منذ خمس سنوات. طويل القامة، قوي البنية، ذو خبرات كثيرة في الحياة؛ ولذا قرر "دون هوانج" أن يعمل معه. قبل أن يحضر إلى بكين كان "دون هوانج" يعرف أن مهنة تزوير الأوراق تدر الكثير من المال، فقط عليك أن تقنع الزبائن، ثم تقوم بتجهيز طلباتهم وتنتظر الحصول على المال المتفق عليه. والحقيقة لم تكن مختلفة كثيراً، فبعد أن تَدَرَّبَ مدة أسبوعين، أصبح مُلِمَاً بهذه المهنة بشكلٍ عام. "باو دينج" كان يقوم فقط بالأعمال الأساسية وهي جلب الزبائن. فإذا ما شاهد أحدهم يمشي مُتلفتاً كمن يبحث عن شيءٍ ما؛ ذهب وسأله: تريد عمل مستند ما؟ عندي كل شيء؛ حتى جوازات السفر. بعد ذلك يتفقان على السعر ويستلم العربون ثم يبحث عن الشخص المناسب ليقوم بعملية التزوير وهكذا. عملية التزوير في حد ذاتها مُعَقدة، ولكنه لا علاقة له بها، فقط يتفق مع المزور على السعر وتسليم البضاعة، فهو ليس سوى وسيط. وهي عمليه نسبية للغاية، فمن يعمل أكثر يربح أكثر. وأحياناً يقعون على صيدٍ ثمين في عملية تزوير كبيرة، ساعتها تكون الدنيا قد ابتسمت لهم ويحتفلون يوميًا وكأن كل يوم هو يوم عيد. وعلى خلاف التزوير، فهذه المهنة تشبه كذلك مهنة بيع الأسطوانات؛ عليك أن تكون مُلِمَاً بالمعلومات المتعلقة بتلك المهنة. على سبيل المثال؛ أشكال الشهادات وأنواعها، رُخَص السيارات وأنواعها، المستندات الدائم الطلب عليها، المستندات التي يحتاجها المتقدمون للوظائف وغيرها. كل ذلك يسهل من عملية إقناع الزبون، ويُزيد من ثقته، وبالتالي تزداد نسب النجاح ومن ثم يزداد كسب المال. كان "دون هوانج"

على دراية تامة بكل هذه المعلومات، وكانت المشكلة الكبرى هي مواجهة الحالات الطارئة، وبالأخص الشرطة. فكيفية اتخاذ القرار في مواجهة الشرطة هو أمر حاسم بالنسبة لمن يُمَارِس تلك المهنة؛ هل يحتفظ بالأوراق بحوزته ويلتزم الصمت، أم يتخلص منها سريعاً؟ فبناءً على تصرفك وتعاونك مع الشرطة تُحدد نوع العقوبة، ولذا ينبغي أن يكون لديك الخبرة الكافية بهذا الشأن.

كانت مشكلة "دون هوانج" تكمن هنا. ففي ذلك اليوم، ذهب مع "باو دينج" إلى مكان بالقرب من مبنى مدينة الباسيفيك للإلكترونيات لتسليم بضاعتهم، كان "دون هوانج" هو من جَلَبَ هذا الزبون، وهو أيضاً من يحمل الورقة المزوَّرة. كانت شهادة ماجستير. وقد اتفق مع الزبون أن يتقابلا في هذا المكان في التاسعة والربع صباحاً. وَصَلَ برفقة "باو دينج" في التاسعة وعشرة دقائق. وانتظرا هناك حتى التاسعة وعشرين دقيقة دون أن يكون هناك أي أثر للزبون. بدأ القلق يساورهما. في تلك الأثناء، رأي "باو دينج" شرطيين قادمين تجاههما على مهل، فقال لــ"دون هوانج":

– خذ حذرك.

ما كاد ينتهي من تلك الجملة حتى باغتهما الشرطيان مسرعين نحوهما. قال "باو دينج":

– اهرب بسرعة!

شرعا في الهروب متجهين نحو منطقة "هاي ديان" عبر البوابة

الجنوبية لجامعة بكين. أثناء جريهما، قال "باو دينج" لـ"دون هوانج":

- من الأفضل أن تتخلص من تلك الورقة.. بدون دليل لن نكون مُدَانَين، وسيُطلق سراحنا سريعاً، وإلا سنواجه مشكلةً كبرى.

لم يوافقه "دون هوانج" فيما قاله، لأنه كان واثقاً من أنهما سوف يتمكنان من الهرب. انتشرت عدوى تلك الثقة إلى "باو دينج" هو الآخر. كان الشرطيان بدينين، وشاهد بنفسه أنه لا خطر منهما، فمن المؤكد أنهما لن يستطيعا اللحاق بهما. كانا بدينين لدرجة أنهما يكادان يحملان كرشيهما بكلتا يديهما حتى يتمكنان من الاستمرار في المطاردة. لم تكن المسافة بين الطرفين بعيدة بما يكفي، ولكن خُيِّلَ لهما أنه لن يُقبض عليهما. استمرا في الجري مروراً بوادي السليكون ثم اتجها جنوباً ليعبرا أسفل الكوبري كي يتمكَّنا من الوصول إلى منطقة بيع الكتب المزدحمة بالناس؛ فالبحث عن شخصٍ هناك أمر صعب للغاية.

كان حظهما عاثراً للغاية؛ فبمجرد أن عبرا الكوبري حتى شاهدا سيارة شرطة متوقفة بجانب الطريق، وأربعة من رجال الشرطة يقفون بجوارها. استدارا بوجهيهما ليجدا الشرطيين البدينين على مقربة منهما. شعر "باو دينج" أنه لا مفر هذه المرة، ثم طلب من "دون هوانج" أن يتخلص من الورقة على الفور. لم يكن "دون هوانج" قد مر بمثل هذا الموقف الصعب من قبل. أمسك الورقة بيده مُتردداً لا يعرف كيف يتخلص منها. عندما رآه "باو دينج" على تلك الحالة؛ أخذ الورقة من يده ليتخلص هو منها، وما إن قام برميها بعيداً حتى كانت الشرطة قد أحاطت بهما، بعد أن شاهدوا "باو دينج" وهو يقوم بإلقاء الورقة بعيداً. التقطها

الشرطي ثم سألهما:

- من منكما صاحب هذه الورقة؟

نظر "باو دينج" إلى "دون هوانج" وقال:

- أنا صاحبها.

سأل الشرطي "دون هوانج":

- هل هذا صحيح؟

أجاب "دون هوانج" مُتلعثماً:

- نعم هذا صحيح.

بعدها ظل "دون هوانج" يشعر بالخجل من نفسه بسبب ما قاله. لقد كان فعلاً مُصَاباً بالذهول حينها، ولا يعرف كيف قال ذلك. ولكن في كل مرة يُرَاوده هذا الشعور كان يُوَاسي نفسه بأن "باو دينج" هو من أراد ذلك. فحينها هز "باو دينج" كتفه مرتين في إشارة لـ"دون هوانج" أن يُصَدِّق على كلامه، وكانت هذه إشارة اتفقا عليها مُسبقاً؛ خاصةً أثناء الحديث مع الزبائن لكي يُؤَمِّن على كلامه أو يفسح له المجال لكي يتفق هو مع الزبون. وهذا ما قد حدث. خرج "دون هوانج" بعدها بثلاثة أشهر، أما "باو دينج" فلا أحد يعلم كم سيقضي بالداخل. عندما خرج "دون هوانج" لم تكن المحاكمة الفعلية لـ"باو دينج" قد بدأت.

في أحد الأيام خرج برفقة "شياو رونج" لبيع الأسطوانات. مَرَّا بجوار كوبري "هاي ديان"، ساعتها تَذكَّر "باو دينج". قَرَّرَ أن عليه أن يكسب الكثير من المال لكي يتمكن من إخراج "باو دينج" من السجن. فدخوله

السجن كان بسببه، كما أنه كان قد ساعده كثيراً خلال العامين الماضيين منذ جاء بكين. كل من يمارس هذه المهنة يعرف جيداً أن عليه الابتعاد عن الشرطة قدر الإمكان وإلا كان مصيره السجن، وإن سُجِن عليه ألا يفقد الأمل، فمن يدخل حتماً سيخرج. عليك فقط أن تجد الشخص المناسب وتُجَهِّز المبلغ المناسب ومن ثم يصبح الأمر سهلاً. المال هو الحل، المال فقط. اختلطت كل هذه الأفكار في ذهنه؛ مما جعله يتنهد قائلاً: "أين أنت أيها المال؟".

في المساء رقد كلاهما على السرير، تفوح منهما رائحة العرق، ولكنهما لا يقويان على الحراك. بل حتى لا يريد أحدهما أن يتحرك من مكانه ليطفىء جهاز مُشَغِّل الأسطوانات. تَغَطَّى كلاهما بالغطاء وأخذا يجريان قرعة، الخاسر فيها يطفىء الجهاز. وكان "دون هوانج" هو الخاسر، فقام عارياً من مكانه وأغلق الجهاز. أدخل إصبعه الوسطى في فتحة الأسطوانة التي خرجت، لكي يعيدها إلى مكانها داخل الغلاف. توقف قليلاً ونظر إلى "شياو رونج" قائلاً:

- أريد أن أبيع أسطوانات الأفلام الإباحية.
- أجننتْ! لو قبضوا عليك، لن تخرج بسهولة.
- عليَّ أكسب المال لكي أُخرِج "باو دينج" من سجنه.

كانت "شياو رونج" تنوي أن تقول له "إذا كنت في حاجة للمال من أجل الإنفاق، لديّ ما يكفي". ولكن بعدما سمعته يقول إنه يُريد أن يُخْرِج

"باو دينج" من السجن؛ لم تنطق بكلمةٍ واحدة. كانت قد ادخرت بعض المال خلال السنوات الماضية، لكنها تريد أن تعود إلى بلدتها، تتزوج وتنجب طفلاً وتقوم على تربيته. كانت تُخَطِّط لذلك منذ وقتٍ طويل. كما أن "كوانج شان" كان يُخَطِّط هو الآخر ليأخذ هذا المال، لكنها نهرته مراتٍ عديدة. فهي قررت أنه بخلاف حالة مرض أيٍّ من والديها، لن تسمح لأحد أن يلمس هذا المال. ومن الطبيعي أن لا تُعطي هذا المال لـ"دون هوانج" لكي يُخْرِج به صديقه من السجن، حتى لو أُجبرت على ذلك. كما أنها كانت غير متأكدة أن هذا المال كافٍ لإخراج "باو دينج" من سجنه؛ لأن "دون هوانج" كان قد حكى لها مُسبقاً أن هذا الأمر يتطلب خمسين ألف يوان على الأقل، مما جعلها تلتزم الصمت حينذاك.

وضع "دون هوانج" الأسطوانة داخل الغلاف ثم نام بجوارها على السرير واحتضنها قائلاً:

– أنا أفكر جدياً في بيع هذه الأسطوانات، فلا فائدة من الاحتفاظ بها على هذا النحو. وإذا كان في ذلك إحراج لكِ، سوف أخرج وحدي لكي أبيعها بعيداً عنك.

– هذه هي فكرتك الحقيقية! أليس كذلك؟ تريد أن تستقل بعملك بعيداً.

– لا تفهميني على هذا النحو الخاطئ، أنا فقط أريد كسب المزيد من المال بسرعة حتى أُخْرِج "باو دينج" من السجن.

التفتت بوجهها إلى الجهة الأخرى وقالت:

- أنا لا أفهم لماذا أنتم الرجال جميعاً تفكرون بهذه الطريقة! كل منكم يريد أن يستقل بنفسه، ولا يدع مجالاً للنساء للعمل معه.

- الأمر ليس كما تعتقدين، أنا فقط أخاف عليكِ من هذا العمل المحفوف بالمخاطر. وما الضرر في أن تبقي بعيدةً في مأمن؟ الرجال ليسوا ملائكة، ولن يستطيعوا الاعتناء بالنساء في كل أمورهم.

- كما تشاء، فقط خُذ معك مجموعة من الأفلام الأخرى وقم بخلطها معاً. سآخذ منك ثمن التكلفة فقط والباقي لك.

كاد "دون هوانج" أن يقفز من الفرحة. احتضنها قائلاً:

- يا لكِ من فتاةٍ مُطيعة.

كانت هذه هي خطته بالفعل؛ فالأسطوانات الخليعة لم تكن سوى ذريعة اتخذها لكي يستقل بتجارته وأرباحه.



5



اختار "دون هوانج" أسطوانات بقيمة ثلاثمائة يوان، وقام بحساب ما يمكن أن يجنيه من أرباح بعد بيعها؛ فكان الناتج حوالي خمسمائة يوان. وفي حالة إذا ما رَفَعَ سعر الأسطوانات الخليعة، سيكون الربح أكثر من ذلك. شَعَرَ بالانتعاش كمن أخذ لتوّه حمَّاماً بارداً؛ فعلى ما يبدو ستكون الأيام المقبلة أفضل من سابقتها. الشعور نفسه الذي انتابه عندما بدأ في العمل مع "باو دينج". حينها كان مضطرباً وخجولاً، فقد كان يعرف أنه يقوم بعمل مُخَالِف للقانون. أما الآن، الوضع مختلف، فهو حالياً لا يخجل من شيء، وأصبح مُتَمرِساً في مهنة البيع ومُحَادَثة الزبائن. كما أن بيع الأسطوانات قانوني نوعاً ما مُقَارنةً بتزوير الأوراق. والأهم من ذلك أنه سيبدأ عمله الخاص به، أو بمعنى آخر سيبدأ حياةً جديدةً في مدينة بكين. ولكي يعطي نفسه المزيد من الثقة، صار يُحَدِّث نفسه قائلاً: "أنا الآن أعمل لحساب نفسي وليس لحساب أحد آخر".

كان يخرج يومياً من منطقة "فو رونج" بصحبة "شياو رونج"، ثم يفترقان ليسير كل منهما في طريقه. كان يُخَطِّط لأن يتاجر بالجملة، فمن غير الممكن الاستمرار في بيع الأسطوانات واحدة بواحدة. كل ما عليه هو أن يبني شبكة دائمة من الزبائن. وهناك ثلاث فئات هي الأنسب لبناء هذه الشبكة: الفئة الأولى؛ فئة الطلاب الجامعيين، فالطلاب الشباب ينفقون المال بكثرة، كما أنهم مُهتمون بالفن أكثر من غيرهم. والفئة الثانية؛ الموظفون الذين يجلسون في مكاتبهم طوال اليوم يقرأون الجرائد ويُقَلِّمون أظافرهم، فهم في حاجة إلى مشاهدة الأفلام للتغلب على الملل اليومي. أما الفئة الثالثة؛ المديرون وأرباب الأعمال. وهم عادةً في حاجة للترويح عن أنفسهم سواء بقراءة كتاب ما، أو مشاهدة فيلم من نوعية أفلام هوليوود أو تلك الحاصلة على جوائز فنية.

والمشكلة الآن هي كيفية بناء علاقة مستمرة مع تلك الفئات الثلاث، فبمرور الوقت يمكنه أن يبيع لهم الأسطوانات الإباحية بسعر مرتفع. كل ما عليه هو أن يبدأ خطوة بخطوة، لأن جني المال يتطلب الصبر. بعد ذلك تسير الأمور بشكل أسرع، و"دون هوانج" يعرف ذلك جيداً.

كان شُغله الشاغل طوال اليوم هو كيفية جني المال بسرعة. حَمَلَ حقيبته وافترش مكاناً بجوار مدخل أحد الأسواق. ميزة هذا المكان هي أن الخارجين من السوق عادةً ما يتبقى لديهم بعض العملات الصغيرة التي لا يترددون في إنفاقها. ومعظم مرتادي الأسواق من ربات المنازل اللاتي يبحثن عن خيال جديد يُغَيِّرن به روتين الحياة اليومي؛ لذلك هن يفضلن

مشاهدة أفلام الرومانسية، وخاصةً المؤثرة منها أو تلك التي تُبْكي المشاهد. وكلما كانت أكثر تأثيراً كانت أكثر رواجاً في البيع. ولذلك عندما يُشَاهدهن "دون هوانج" قد التففن حوله، سريعاً ما يُخْرِج من حقيبته أسطوانات من ذلك النوع الذي تُوجد على أغلفته صور لشاب يُعَانِق فتاة أو يُقَبِّلها، ويشرع في الحديث إليهن، قائلاً:

- هذا الفيلم يحكي قصة حب ملتهبة تجعل المشاهد لا يكف عن البكاء.. هناك أشخاص فكروا في الانتحار بعد مشاهدته.. وأزواج افترقوا ثم عادوا ثانيةً بعد مشاهدته.. ناهيك عن أولئك الشباب الذين يعيشون قصة حب.. ذلك الفيلم يجعل قصتهم أكثر التهاباً.

ويستمر في خداعهم قائلا:

- وَرَدَ في الصحف أن هذا الفيلم مناسب للغاية لربات المنازل؛ فهو بمثابة الحافز على استمرار الحب وتعميق المشاعر، وهو مفيد جداً للتناغم العائلي سواء أكانت هناك مشاكل بين الزوجين أم لا.. إنه ليس فيلماً وحسب، بل هو أكثر من ذلك بكثير.

لقد تعلم هذه العبارات وسمعها كثيراً، ولا يعرف إن كانت ذات نفع أم لا. هو فقط يقولها فحسب. المهم أن يُقنعهن بالشراء. النساء عادةً أسهل في الإقناع من الرجال؛ فقط عليك أن تخلط الموضوع بالحب والمشاعر ومن هنا تكون قد أنجزت نصف المهمة.

أما بالنسبة للرجال الخارجين من السوق، فالمهمة أصعب بكثير. لأنهم يتظاهرون بمظهر الشخص الجاد الذي لا وقت لديه لهذه الأفلام. وفي

الحقيقة، يعرف "دون هوانج" أن هذا نوع من التظاهر فقط. وأنه إذا ما توافرت الظروف المناسبة ولم يكن هناك مارة بالجوار؛ فإن معظم الرجال يتوقفون لمشاهدة أغلفة الأسطوانات التي تحوي صوراً لنساء شبه عاريات، يُحَدِّقون فيها بأعينهم من الأعلى للأسفل تماماً كما يعمل جهاز الأشعة تحت الحمراء. هم فقط بحاجة إلى أن تُمَهِد لهم الطريق، وأن تعرف كيف تُثِير فضولهم. في مثل تلك الأحوال يبادر "دون هوانج" بالحديث إلى الزبون قائلاً:

- مرحباً بك يا سيدي، يمكنك أن تُلقي نظرة، خُذ وقتك.. كلها أفلام جديدة، يوجد معي جميع أنواع الأفلام.

إذا نجح في جذب انتباههم وتوقفوا عنده، قال لهم بصوت منخفض تملؤه الثقة:

- في الحقيقة، إن الأفلام الأوروبية والأمريكية ليست الأفضل، الكورية واليابانية أفضل بكثير، فتيات جميلات وجذابات.

حينها يتظاهر الزبون بعدم المبالاة قائلاً:

- حقيقي، وكيف ذلك؟! أرني البعض منها إذا كان لديك.

حينذاك يتابع "دون هوانج":

- هل تحب النوع الذي يحكي قصةً ما أم تحب النوع المعتاد؟

يستمر الزبون في التظاهر قائلاً:

- وما الفارق بين هذا وذاك؟

يُوَضِّح "دون هوانج":

- بالنسبة للنوع الذي يحكي قصة، فهو مُمل بعض الشيء؛ لأن معظم قصص هذه الأفلام متشابهة. أما بالنسبة للنوع المعتاد فالوضع مختلف، إنه أكثر واقعية، يأخذك للأحداث مباشرةً، يقترب منك وكأنه يفهمك ويعرف تحديداً ماذا تريد، ففي كل مرة تشاهده تكتسب خبرات جديدة؛ ومنها بعض الأفلام التي قد تشاهدها مرات ومرات دون أدنى ملل. تماماً كما تقول الصحف، هذه الأشياء ملائمة أكثر لإشباع الرغبات، كما أنها مفيدة للصحة البدنية والنفسية في ظل إيقاع الحياة الحديثة السريع.

يحاول قدر الإمكان أن يجعل من هذه الأفلام ذات قيمة أخلاقية؛ حتى لا يشعر الزبون بالإحراج.

يقول الزبون:

- يا لك من بارع في الإقناع.

ثم يتلفت حوله يميناً ويساراً ويتابع:

- أرني البعض منها.

ويُخْرِج "دون هوانج" عدة أسطوانات من جيب في ظهر الحقيبة، كاشفاً عن نصف الصورة الموجودة على الغلاف، قائلاً:

- اطمئن تماماً، فالجودة لا غبار عليها.

ينظر الزبون بطرف عينه على واحدة أو أكثر من الأسطوانات التي جذبت انتباهه، ويقول متظاهراً بعدم الاكتراث:

- اعطني اثنتين منها، ربما أشاهدها وقتاً ما.. كم سعرها؟

- سعر الواحدة خمسة عشر.

وإذا ما لاحظ على الزبون عدم الرضا عن السعر، تَابَعَ قائلاً:

– مثل هذه الأفلام الجيدة ليست كثيرة. أقول لك الحقيقة، لا يوجد في بكين كلها سوى عدد محدود من التجار لديهم مثل هذه الأنواع الجيدة. ربما تجد سعراً أرخص في مكان آخر ولكن ليس بالجودة نفسها؛ فالجودة أهم من كل شيء. هي المؤثر الحقيقي والأمين على صحتك الجسدية والنفسية.

"الحقيقي والأمين"، هاتان الكلمتان لهما عامل السحر، فمعظم أولئك الرجال الذين يتوقفون للمشاهدة فقط يشترون في النهاية أسطوانة أو اثنتين بسبب هاتين الكلمتين.. بسببهما يشعرون بالطمأنينة، وينمحى لديهم الشعور بالخجل.

يا لها من تجارة مُربحة.. الأسطوانة الواحدة من هذه الأفلام تربح ثلاثة أضعاف ربح أسطوانات الأفلام العادية.

بحلول المساء، لملم "دون هوانج" بضاعته وجلس يُحصي نقوده. وجد أنه ربح اليوم مائة وعشرين يواناً.. يا لها من بداية رائعة. فأول مبلغ يربحه من تزوير الأوراق كان ثمانين يواناً. شَعَرَ بالسعادة الغامرة، وذهب ليشتري نصف كيلو من اللحم المجفف الذي تحبه "شياو رونج" وزجاجة كبيرة من البيرة، وطلب وجبة أسماك سريعة ثم عاد مُبتهجاً إلى منطقة "فو رونج لي"؛ ليحتفل مع "شياو رونج" ببدء تجارته الجديدة. في غمرة الفرح أخذ يشرب بنهم. شربت "شياو رونج" كأساً واحداً بينما شَرَبَ هو أربعة كئوس، ويريد

أن يشرب المزيد. قاطعته "شياو رونج" قائلة:

- لا تشرب أكثر من ذلك حتى لا تغيب عن وعيك.

نسي ما قاله لها من قبل "إن القليل من البيرة قد يُفقده وعيه"؛ فتابع قائلاً:

- أربعة كئوس بالنسبة لي لا شيء على الإطلاق؛ فالبيرة لا تُؤثر عليّ مُطلقاً.

كانت تمسك بقطعة من اللحم المجفف، ألقتها من يدها وضربت بيدها على الترابيزة بعنف، قائلة:

- يا لك من حقير مُخَادِع. خدعتني أول يوم التقينا وتظاهرت بالسكْر لتجيء معي إلى البيت وتنام عندي.

كان مُمسكاً بكأسه فوضعه على الترابيزة مذهولاً. لقد نسي هذه الخدعة تماماً.. لكن النساء لا تنسى بسهولة. ولكنه تمالك نفسه قائلاً:

- لم أخدعك إطلاقاً. كانت أول ليلة تمر على خروجي من السجن، ولم أكن قد شربت لمدة طويلة، وكنت حينها أقرب إلى السكْر. ولكن لا أنكر أني خدعتك بعدها حتى أبقى بجوارك، فلولا أني أحبك ما فعلت ذلك.

قالت له:

- ومن قال إنى أريدك أن تحبني.

في الحقيقة، إن "شياو رونج" كانت سعيدة بكلماته تلك. فما من أحد يقدر أن يُقَاوم إغراءات الحب بسهولة.

أخذ "دون هوانج" قطعةً من اللحم المجفف ووضعها في فمها قائلاً:

- ليس حباً فقط.

وخبط كأسه بالكأس الذي كانت "شياو رونج" تشرب منه، قائلاً:

- بل حب من النظرة الأولى.

قضمت "شياو رونج" القطعة التي وضعها "دون هوانج" في فمها، ومالت برأسها للأسفل قائلةً:

- لا ينبغي عليك أن تحبني بهذه الطريقة.

ضحك وقال لها:

- لنشرب نخب أيامنا الحلوة المقبلة.

راجت تجارة الأسطوانات التي يبيعها "دون هوانج". كان يبيع أكثر من "شياو رونج". وشَعَرَ أن عليه أن يشتري الأسطوانات من "شياو رونج" بسعر أعلى من سعر التكلفة الذي اتفقا عليه مُسبقاً. على الأقل عليه أن يرفع سعر الأسطوانة نصف يوان. رفضت "شياو رونج" هذه الفكرة. كما أنها لاحظت أن "دون هوانج" عادةً ما يُحضر معه بعض الطعام والشراب عند عودته إلى البيت قائلاً إنه اشتراها في طريقه، لأنه لا يريد أن يكون حِمْلاً عليها. وهو يعلم تماماً أن أيامه هنا معدودة، فقد تنتهي فجأةً يوماً ما. كما أنه لا يريد أن تستمر العلاقة بينهما بهذه الطريقة.

في اليوم الخامس من بيع الأسطوانات، اشترى "دون هوانج" تليفون نوكيا مُستعمل. اتصل بـ"شياو رونج" مُغَيِّراً من نبرة صوته قائلاً:

- هل تعرفين شخصاً يُدْعَى "دون هوانج"؟

- من أنت؟

– أنا من الشرطة، وقد ألقينا القبض عليه أثناء قيامه ببيع الأفلام الإباحية.

بدا صوتها مضطرباً وهي تقول:

– يا إلهي. وأين هو الآن؟ أخبرني من فضلك أين هو الآن؟

لم يتمكن "دون هوانج" من الاستمرار في هذه التمثيلية أكثر من ذلك وانفجر ضاحكاً. فطنت "شياو رونج" إلى خدعته؛ فقالت له:

– لتذهب إلى الجحيم.

وأغلقت التليفون. ظل "دون هوانج" يضحك بعد أن أغلقت السكة في وجهه. أرسل لها رسالة نصية كتب فيها: "يا له من شيء رائع أن يكون هناك أحد يهتم لأمرك". بعدما قرأت "شياو رونج" رسالته، قالت في نفسها، "يا لك من شخص مغرور، من هذا الذي يهتم لأمرك، فأنا لا أعرف كيف أهتم بأمور نفسي". ظل "دون هوانج" فرحاً مُبتسماً بعد تلك المكالمة. كلما قابل شخصاً ابتسم في وجهه، تماماً كالمعتوه.

سرعان ما بدأ "دون هوانج" في استخدام تليفونه الجديد في العمل. بدأ يبيع الأسطوانات عند البوابة الجنوبية لجامعة بكين. جاء طالبان وسألاه:

– هل لديك فيلم "Run Lola Run"؟

بحث "دون هوانج" في حقيبته؛ فوجد لديه أسطوانة واحدة. لم يشاهد هذا الفيلم من قبل. كان قد اختار هذا الفيلم ضمن المجموعة التي يبيعها؛ لأنه وجد على غلاف الأسطوانة صورةً لفتاةٍ ذات شعر أحمر وهي تجري، وهو يحب هذا النوع من الصور. قال أحد الطالبين:

- يا لها من معجزة.. أخيراً وجدنا هذا الفيلم. فمثل هذه الأفلام الجيدة انقرضت.

ذُهِلَ "دون هوانج" من ردة فعلهما، وسألهما:

- هل هذا الفيلم جيد؟

أجابه أحدهما:

- جيد للغاية، من الكلاسيكيات الرائعة. بحثنا عنه كثيراً في محلات بيع الأسطوانات ولكن بلا جدوى. هل لديك المزيد؟ زملاؤنا في الصف يبحثون عنه أيضاً، فقد طلب المعلم منا أن نقوم بعمل تحليل لنص الفيلم.

- كم نسخة تريدون؟

سأل أحدهما الآخر:

- من عشرين إلى ثلاثين، صحيح أم لا؟

أجابه الآخر:

- نعم.. تقريباً هذا العدد.

قال "دون هوانج" في نفسه:

- يا إلهي، هذا عدد لا بأس به.

يبدو أن التجارة سوف تزدهر يوماً بعد يوم. ثم سألهما:

- ماذا عن الغد؟ إذا كان الغد مناسباً، سأقوم بتوصيلها لكما.

قالا له:

- لا توجد مشكلة، كلما أسرعت كان أفضل.. سوف ننوب عن زملائنا في شراء الأسطوانات.

تبادلا أرقام التليفونات، واتفقا على أن يهاتفاه غداً بعد انتهاء

دروسهما. على الفور اتصل "دون هوانج" بـ"شياو رونج"، ومن حُسن الحظ أنها كانت في مكان غير بعيد من المتجر الذي تُجلب منه الأسطوانات. وفي المساء أحضرت له ثلاثين نسخة من فيلم" Run Lola Run". في اليوم التالي اتصل به الطالبان، وبالفعل قاما بشراء النسخ الثلاثين كلها.

كاد "دون هوانج" يطير من الفرحة؛ فهذه هي المرة الأولى التي يبيع فيها ثلاثين نسخة مرةً واحدة. الشعور نفسه الذي انتابه في السابق تماماً عندما قام بجلب عدة زبائن في يوم واحد حينما كان يقوم بتزوير الأوراق. مشى الطالبان مسافة غير بعيدة، ولكنه سعى في إثرهما قائلاً:

- إذا أردتم المزيد من الأسطوانات يمكنكما أن تتصلا بي، وسأقوم بتوصيلها على الفور إذا كانت متوفرة لديّ.

ولأنه يخشى أن ينسيا رقم تليفونه؛ قام بكتابته على ورقتين صغيرتين وأعطى كل واحد منهما واحدة منها.

بعد ذلك اتصلا به؛ في المرة الأولى طلبا فيلم "Wings of Desire" والمرة الثانية طلبا النسخة القديمة من فيلم" Spring In A Small Town" للمخرج "في مو"، والنسخة الجديدة منه للمخرج "تيان تشوانج تشوانج". وكلها أفلام يستخدمونها في دروس تحليل النصوص الفنية. وقد بلغ إجمالي ما باعهما من أفلام ثمانية وتسعين نسخة.

6



انتهت حياة السكن المشترك بينهما في يومها الحادي والعشرين. ففي مساء ذلك اليوم، كانت الأمور تسير بشكلها المعتاد، فقط كانت الرياح قوية بالخارج، والرياح القوية في بكين ليست بالأمر المستغرب. وفي ذلك المساء كانت شديدة بالفعل، وصريرها يُدَوِّي بالخارج كمجموعة من الأطفال يجهشون بالبكاء. كانت هناك مشكلة في نافذة البيت الذي تسكن فيه "شياو رونج"، فبمجرد هبوب الرياح، لا يُسمع بالداخل فقط سوى صوت صريرها الشبيه ببكاء الأطفال، بل وكأن هؤلاء الأطفال يطرقون على النافذة بشكل جماعي. في الحادية عشرة وعشرة دقائق كانت "شياو رونج" تجلس في سريرها مُغطاة باللحاف، وتُقَلِّب في إحدى المجلات القديمة. سمعت تليفونها يدق جرس استلام رسالة نصية. فتحت الرسالة ثم بدت شاردة الذهن بعدما قرأتها، وظلت كذلك حتى خرج "دون هوانج" من دورة المياه. كانت منحنية الرأس للأسفل. تنظر إلى الرسالة النصية وظلت تقرأها

عشرات المرات، فقد كانت تنتظر خروج "دون هوانج" من دورة المياه.

كان يلف الفوطة حول وسطه دون أن يرتدي لباساً داخلياً، فهو ليس في حاجة إليه مادام سيخلعه فور صعوده إلى السرير. دخل غرفة النوم ولما رأته "شياو رونج"، قالت له:

- سوف يعود.

قام "دون هوانج" بفك فوطته ثم قال مازحاً:

- بالطبع سوف يعود، وها هو قد عاد.

لَوَّحَتْ بتليفونها أمامه قائلة:

- سيعود الليلة في الساعة الثانية عشرة.

وعندما شاهدت ملامحه تبدلت، قالت له بصوت منخفض:

- يريد أن يعود لكي يعتذر.

سقطت الفوطة التي كان قد فكها لتوه على الأرض، حينها شعر بالبرد في الجزء السفلي من جسده، فأمسك بها ثانيةً وربطها جيداً. لقد وعي تماماً ما قالته. كانت تنظر إلى الأسفل وشعرها المتدلي على جبينها يُخفي معالم وجهها. ببطء استدار بجسده وتَوَجَّه ليجمع ملابسه. جمع لباسه الداخلي، وقميصه، وبنطلونه، ومعطفه، وجوربه، وحذائه، وذهب إلى الحمَّام ليرتديهم. كان الحمَّام لا يزال دافئاً بالداخل، وبخار الاستحمام لم ينقشع بعد، وبالرغم من ذلك شَعَرَ بالقشعريرة تنتاب جسده. ارتدى ملابسه كاملة، ثم لف فوطته، وجمع متعلقاته الأخرى؛ فرشاة الأسنان، وماكينة الحلاقة، وكريم الحلاقة. وضع كل متعلقاته في كيس بلاستيكي، ثم دسَّها

في حقيبته التي كان يحملها في المرة الأولى التي جاء فيها إلى هذا المكان. لم تمر سوى أيام معدودة، ولكنه اكتشف أن متعلقاته أصبحت أكثر من أن توضع في الحقيبة. فمهما كانت حياتك بسيطة، فهي تتمدد وتتعقد بمرور الوقت بداعٍ أو بدون. دائماً ما كان "دون هوانج" يعتقد أن حياته مُثقلة بالأعباء، ويشعر كما لو أنه يعيش في مكان على الهامش، وكأنه ورم منبوذ غير مرغوب فيه. والآن أصبح كل ما يخصه يجعل من حمله أكثر ثقلاً. بحث عن كيس بلاستيكي أكبر حجماً ووضع بقية الأشياء بداخله. والآن ينبغي عليه أن يختفي هو ومتعلقاته من هذا المكان قبل أن يدخله ذلك الرجل الآخر. انتهى من جمع حاجاته، وحمل حقيبته، وأمسك بالكيس البلاستيكي في يده وهَمَّ بالخروج. حينها نطقت "شياو رونج" قائلة:

- خُذ الأسطوانات معك.

لم ينطق "دون هوانج" بكلمة واستمر في طريقه مغادراً المكان. قفزت "شياو رونج" من فراشها وأمسكت بحقيبته من الخلف محاولة إيقافه. التفت إليها ونظر إلى ساقيها العاريتين أو بمعنى أدق نصف جسدها السفلي بالكامل. لم تبدِ "شياو رونج" أي نوع من الخجل، بل أمسكت بيده ووضعتها على ساقها العارية وأخذت تتحسس بها جسدها، مما أشعره بمدى نعومة ونقاء بشرتها.

أمسكت سوستة معطفه بيدها الأخرى تحركها للأعلى وللأسفل، فهي تحب سماع صوت انزلاقها. وقالت له هامسةً:

- أنا أعرفه منذ عشرة سنوات، ولا أريد الآن سوى العودة إلى دياري؛

أريد أن أتزوج وأنجب طفلاً، لا أريد أن أستمر على هذه الحال.

ابتسم لها "دون هوانج" قائلاً:

- ينبغي عليكِ العودة.

كانت يده لا تزال تلامس بشرتها، وكان الجو بارداً بعض الشيء، فقد سمع نشرة الأحوال الجوية تقول إن الغد سيكون يوماً بارداً وعاصفاً. قالت له ثانيةً:

- خُذ الأسطوانات معك، وإذا قمت ببيعها كلها اتصل بي وسوف أرسل لك المزيد.

فَكَّرَ "دون هوانج" قليلاً ثم قال:

- أوكي.

سحب يده من على جسدها العاري وذهب ليجمع الأسطوانات. وضع الكثير من الأسطوانات العادية والإباحية داخل ثلاثة أكياس، وكأنه رحَّال ينوي السفر بعيداً. ولما هَمَّ بالخروج من الباب نظر إليها ثانيةً؛ فوجد عينيها قد اغرورقت بالدموع.

كانت الرياح شديدة بالأسفل، حتى كادت أن تخلعه من مكانه. حاول النظر إلى نافذه البيت بالأعلى ليرى إذا ما كانت "شياو رونج" تنظر إليه من النافذة أم لا، ولكنه تمالك نفسه. شعره لم يجف تمامًا بعد، وكان الهواء يضرب رأسه كمن يصب عليها ماءً بارداً. شَعَرَ بأنه يريد أن يُدخن سيجارة، ففي الأيام الماضية كانت "شياو رونج" تمنعه من التدخين ليلاً بعد أن يغسل أسنانه. لم يفهم لماذا كانت تمنعه من التدخين بعد أن

يغسل أسنانه بالفرشاة. والآن يشعر بأنه يريد أن يعوض كل تلك الأوقات التي منعته فيها من التدخين. توقف عند مكان يستتر فيه من الرياح الشديدة أسفل أحد أعمدة الإنارة ذات الضوء المتذبذب. وضع حقيبته جانباً، وأشعل سيجارته ثم جلس على الأرض. أشعل خمس سجائر متتالية حتى فرغت علبته، ولم يكن قد اكتفى من التدخين بعد. تجاوزت الساعة ـ حينذاك ـ الثانية عشرة بعد منتصف الليل. شَعَرَ بالبرد أسفل مؤخرته. نهض واقفاً عازماً أن يذهب ليشتري علبة من السجائر.

كان الطريق خالياً من المارة تقريباً، ولم يكن هناك سوى بعض السيارات التي تمر بسرعة مخترقة الرياح وكأنها أشباح وحيدة ضالة. أغلقت المحلات والمتاجر أبوابها، واختفت حياة الليل المفعمة بالضجيج في بكين، بشكل مؤقت، مع هبوب تلك الرياح. ولم يكن أمامه سوى البحث عن بعض المتاجر التي تفتح أبوابها أربع وعشرين ساعة. لم يكن قادراً على أن يتذكر أين توجد تلك المتاجر التي لا تغلق أبوابها. لقد قضى عامين في بكين وكان يعتقد أنه على دراية بكل شوارع وتفاصيل حي "هاي ديان"، إلا أنه اكتشف أن هذا المكان ليلاً مختلف عنه تماماً نهاراً. ما الفائدة إذا كنت تعرف المكان جيداً بالنهار، بينما أنت كالغريب فيه بالليل؟ ها هو الظلام يسود المكان، كل شيء أمام عينيه مظلم، بل كان الظلام أمام عينيه أكثر سواداً من ظلام ليل بكين الحقيقي. سار بمحاذاة الطريق حاملاً حقيبته على ظهره واثنين من الأكياس البلاستيكية في يده، آملاً العثور على متجر مفتوح الأبواب.

بحلول الساعة الواحدة والنصف تقريباً، وجد أحد تلك المتاجر. اشترى علبتين من سجائر "تشونج نان هان". جلس بجوار أحد الجدران متفادياً الرياح الشديدة، ودخن ست سجائر متتالية. شَعَرَ بالبرد والإرهاق الشديدين بعدما فرغ من التدخين. ظل يفكر إذا ما كان عليه أن يبحث عن مكان يبيت فيه ليلته. في ذلك الوقت كانت معظم الأوتيلات قد أغلقت أبوابها، كما أنه لا يتذكر هل هناك أوتيل رخيص قريب منه أم لا. هو فقط يريد النوم لا أكثر. سرير واحد ليس إلا. ظل يفكر ويفكر ولا يرى أمام عينيه سوى السواد الحالك. شعر بالفشل، فهذه هي بكين، قد تقضي فيها عمرك بالكامل وأحياناً لا تعرف شيئاً عن المكان الذي تعيش فيه. ولأنه لا يعرف كم من المال يتطلبه المبيت في الأوتيل في الليلة التي لم يتبقى منها سوى نصفها؛ تحسس "دون هوانج" ذلك المبلغ الزهيد في جيبه، وقرر أنه لن يذهب للبحث عن أوتيل يبيت فيه، وسوف يواصل ليلته كما هو، فالنهار آتٍ لا محالة، فقط تبقت سويعات قليلة.

أخذ يسير تارة ويتوقف أخرى في ظل ذلك الجو العاصف والغبار يتسلل إلى أنفه وفمه. ففي مثل تلك الليلة وتلك الأجواء عليه أن يبحث عن وسيلة ما ليُضَيِّع بها الوقت. ظل يتطلع إلى الأشجار، الطرقات، المباني، اللافتات وكل ما يمكن أن تقع عليه عيناه. اكتشف أن الرياح تُصدر صريراً عندما تمر عبر الأشجار أو ترتطم بالمباني والطرقات، فهي مختلفة تماماً عن تلك الرياح الناعمة البطيئة التي تهب في بلدته. الريح في بكين سوداء باردة، أما الريح في بلدته فهي صفراء دافئة. أشعل سيجارةً

أخرى؛ حيث كان الغبار يختلط مع دخان السيجارة مما أشعره بالجفاف والمرارة في حلقه. ظل يسير على هذه الحال، وبحلول الساعة الثالثة والنصف فجراً، شعر أن جسده قد تصلب، تماماً كقطعة خشبية جافة، وأن قدميه غير قادرتين على حمله، وبدأ يفقد الشعور بجسمه، لربما لو لم يكن حاملاً حقيبته ومتعلقاته لكانت الريح جرفته في طريقها. والآن كل ما يريده هو مكان يختبئ فيه ولو حتى مدة خمس دقائق. مشى حتى وصل إلى مكان لا يعرفه، وغير بعيد كان هناك دكان عبارة عن غرفة بسيطة لبيع طعام الإفطار تقع على جانب طريق المشاة أمام أحد المتاجر، وكان هناك رف بارز خارج الدكان. فَكَّرَ "دون هوانج" أن يستلقي بجسده أسفل ذلك الرف.

كانت أبواب ونوافذ الدكان مغلقة بإحكام. ولأن الضوء لم يكن مُسَلطاً عليه كان من الصعب عليه أن يكتشف ما بداخله، ولكنه استطاع أن يجزم أن هذه الغرفة فارغة ومهملة. فقد بدا عليها أنها ظلت مهجورة فترة من الوقت، وإلا ما كان هذا حالها. ظل يحاول فتح باب هذه الغرفة أو نافذتها ولكنها كانت مغلقة بإحكام. فَكَّرَ أن يأتي بحجر ليكسر به زجاج النافذة ومن ثم يتمكن من الدخول لينام بالداخل مختبئاً من الرياح. يا لها من ليلةٍ لعينةٍ، فلولا هذه الرياح الشديدة لكانت الأمور أفضل بكثير. لم يجد حوله حتى قطعة من الحجارة ليكسر بها الزجاج. وبينما كان يفكر في كسر الزجاج بيده، مرت من خلفه سيارة لم تلبث أن انعطفت جانباً. في تلك الأثناء تسلطت أضوائها على باب ونافذة الدكان. حينها رأى "دون هوانج" أن هناك فتحة صغيرة في أحد الألواح الزجاجية، مد يده

خلالها فوجد مزلاجاً ما إن حَرَّكه بيده حتى انفتحت النافذة.

كانت فتحة النافذة كبيرة بما فيه الكفاية لكي يدخل منها. وبدا كما لو أنه لم يدخلها أحد منذ شهور طويلة، فقد كانت مليئة بالغبار. أخذت عيناه تعتاد على الضوء الخافت بالداخل، ثم وجد كومة من ورق الجرائد القديمة في أحد الأركان، حينها اكتشف أنه من المؤكد أن أحدهم كان يعيش هنا، ربما كان شخصاً مشرداً مثله؛ بل ربما كان هذا الشخص هو من كَسَرَ تلك الفتحة الموجودة بالنافذة.

قام بفرد ورق الجرائد في أرضية الغرفة، ثم وضع معطفه فوقها، واستلقى بجسده فوق المعطف وغطاه ببعض الملابس التي أخرجها من الحقيبة. كان الهواء الداخل إلى الغرفة هادئاً نسبياً مقارنة بالعواصف التي تهب بالخارج، وهو ما جعل "دون هوانج" يشعر بدفء لا يوصف. يا له من شخص حاذق هذا الذي كان يعيش هنا، ولكن هل هو حقاً شخص مشرد أم هو شخص مثله وجد نفسه فجأةً بلا مأوى؟ أو ربما كانت فتاة ضلت طريقها! لم يستطع أن يخمن ماهية ذلك الشخص، ولكن المؤكد أن هذا الشخص قد بات هنا ليلة على الأقل. شَعَرَ أن هذا التحليل منطقي، وهو ما جعله يبتسم، ثم أراح رأسه للخلف واستغرق في النوم.

نام نوماً عميقاً لم تخالجه الأحلام، وعندما فتح عينيه كانت الشمس قد أطلت بنورها. كان يوماً صحواً مُشمساً، وفي الخارج كان ضجيج أصوات السيارات يختلط بأصوات المارة، فقد عادت الحياة في بكين إلى طبيعتها

الصاخبة مرةً أخرى. نَهَضَ "دون هوانج" جالساً، وشَعَرَ بالتراب يملأ فمه وكأنه ظل طوال ليلته يأكل من هذا الغبار، فأخذ يبصق مرات عديدة حتى شَعَرَ أنه قد تخلص من الغبار الموجود بفمه. كانت أرضية الغرفة مكسوة بطبقة من الغبار أكثر كثافة من تلك التي كانت عليها الليلة الماضية. تريث قليلاً حتى شَعَرَ أنه استفاق تماماً ثم نهض من على الأرض، وفتح الشباك فوجد أن هناك عدد قليل من المارة وعلى بُعد خطوات كانت هناك سيدة تبيع الفطير المقلي. فمع توقف الرياح، عادت عجلة الحياة للدوران على أشدها.

كان هناك عدد من المارة ينظرون لذلك الشخص الذي يخرج من نافذة هذه الغرفة القديمة، ولكن "دون هوانج" لم يعيرهم أي انتباه. شم رائحة الفطير المقلي الشهية حينما كان ينفض الغبار عن ملابسه، فشعر بالجوع والعطش الشديدين، ثم توجه ناحية السيدة التي تبيع الفطير المقلي قائلاً:

– اعطيني فطير مقلي وكوباً من عصير الصويا.

ابتسمت له السيدة ثم أخذت تُعد له طلبه بينما مد يده وأخذ كوباً جاهزاً من عصير الصويا وشَرَعَ يشرب منه. بعدما فرغ من الشرب كانت السيدة قد انتهت من إعداد الفطير المقلي المخلوط بالبيض. سألها:

– كم الحساب؟

ثم هَمَّ بأكل الفطير المقلي الساخن الذي كاد أن يلسع فمه من شدة سخونته.

أجابت السيدة:

– هذا مجاني، هدية مني لك.

أصابه الذهول فجأة، وأدرك على الفور ما تعنيه هذه السيدة. قام برمي الفطير على الأرض، ثم أخرج من جيبه عشرة يوانات ووضعهم أمام السيدة قائلاً:

– أنا لست متسولاً، لم أطلب منكِ أن تشفقي عليّ.

أخذ حقيبته ومضى في طريقه وهو يبكي. أخذت السيدة تنادي عليه وتطلب منه أن يأخذ الباقي ولكنه لم يلتفت إليها. كان يسرع في مشيته مستقيم الظهر أشبه بمومياء متحركة، والمارة يلتفتون إليه باستغراب، لماذا يبكي هذا الشاب اليافع؟ لم يعرهم "دون هوانج" أي انتباه، بل استمر في طريقه. وخلال انعطافه في إحدى الطرقات، كانت هناك مرآة مستديرة من ذلك النوع المستخدم في تنظيم المرور، وقف أمامها ينظر إلى نفسه ليجد شخصاً غريباً عن ذلك الذي يعرفه، شعر أشعث ووجه مغبر بالتراب، وعينان مغرورقتان أسفلهما خطين من بقايا الدموع المنهمرة، ومعطفه الذي يرتديه بدا بحالة مُزرية، حيث كان مائلاً ناحية اليسار كاشفاً عن كتفه الأيمن، وياقة سترته الصوفية بدت ضيقة من جهة وواسعة من جهة أخرى، وبدا بنطلونه مُجَعداً بلا هيئة، ثم نظر إلى حذائه فوجده كحذاء قديم التقطه أحدهم من الصحراء. بتلك الحالة ماذا يكون سوى متشرد؟ ماذا يكون سوى متسول؟ يحمل في يده ثلاث أكياس بلاستيكية أقل ما تُوصف به أنها قبيحة. ثم استدار بجسده عائداً إلى الخلف مُتجهاً نحو السيدة التي تبيع الفطير المقلي.

لم تره السيدة التي كانت تنظر للأسفل منهمكة في عملها. توقف

أمامها ثم قال:

- أيتها الخالة. رفعت رأسها وعندما رأته عادت لتنظر إلى الأسفل مرةً أخرى وكأنها لم تره. أحنى رأسه ثم استطرد قائلاً:

- أنا آسف أيتها الخالة، لا تنزعجي مني، فقط أريد أن أشتري فطيرة مقلية أخرى وكوباً آخر من عصير الصويا.

قالت له بدون أن تنظر إليه:

- انتظر حتى أفرغ من هذا الطلب، ثم أُجَهِّز لك طلبك.

ثم تابعت:

- يا لك من عنيد مُندفع.

تظاهر "دون هوانج" بالابتسام ثم تأسف لها مرةً ثانية. قطعتان من الفطير المقلي وكوبان من عصير الصويا بإجمالي ثمانية يوانات، ثم أعطته يوانين هما المتبقيان من اليوانات العشر. وبسبب نظراتها المشفقة عليه اضطر "دون هوانج" أن يكذب عليها قائلاً إنه وصل بالقطار متأخراً ليلة البارحة، ولم يتمكن من العثور على فندق يبيت فيه.

المشكلة الآن هي كيف يجد مكاناً يُقيم فيه! فليس باستطاعته الآن استئجار شقة يسكن فيها، فأصحاب الشقق في بكين متغطرسون للغاية، وعادةً ما يطلبون دفع الإيجار مُقَدماً بصفةٍ سنوية أو نصف سنوية. فأنى له أن يأتي بقيمة الإيجار وهو بتلك الحالة؟ لا مفر أمامه سوى العثور على مكان يدفع إيجاره بشكل يومي أو حتى أسبوعي، والأفضل أن يكون سريراً

فقط لا غير؛ ذلك النوع من الغرف التي تُؤجر لأربعة أشخاص بمعدل خمسة وعشرين يواناً للفرد الواحد في اليوم، والأفضل أن يكون العدد أكثر من ذلك، فكلما كثر العدد قَلَّ الإيجار اليومي. ذهب "دون هوانج" إلى منطقة بجوار جامعة بكين تكثر فيها الإعلانات عن هذا النوع من السكن.

وجد إعلاناً عن غرفة لأربعة أشخاص بإيجار خمسة وعشرين يواناً للفرد يومياً، في بدروم بمنطقة غير بعيدة عن الجامعة. اتصل برقم صاحب الإعلان، واتفقا على أن يُقابله بعد نصف ساعة عند البوابة الغربية لجامعة بكين. وصل صاحب الإعلان في الموعد المحدد؛ رجل في الأربعينات، نحيل القامة، ظهره محني قليلاً، ربما لو كان في الشارع ليلة أمس لطار بعيداً من شدة الرياح. اصطحبه معه مروراً بمنطقة "وي شيو يوان"، وصولاً إلى منطقة "تشنج تسي". كان "دون هوانج" قد مر هنا منذ بضعة شهور عندما كان في طريقه لتسليم بعض الأوراق المزورة.

كانت الغرفة ضيقة للغاية، ومُرَتَّبة بشكل أشبه بغرف سكن الطلبة المزدحمة. فبخلاف السريرين المكوَّنين من دورين واللذين احتلا مساحة الغرفة بشكل شبه كُلي؛ كانت هناك مساحة ضيقة لترابيزة صغيرة وُضع عليها بعض المتعلقات الصغيرة وطبق بلاستيكي به فوط وأكواب وفرش أسنان. كانت ثلاثة من الأسِرّة مشغولة ولم يتبقَ سوى سرير علوي. امتلأت المساحات أسفل الأسَرّة بحقائب ساكني الغرفة. قال له صاحب الغرفة إنه لا داعي للقلق من السكان الثلاثة، فهم جاءوا إلى جامعة بكين

لأداء امتحانات الماجستير. وعلى العكس لم يطمئن "دون هوانج"، فقد شَعَرَ بأن هذه الغرفة مريبة تماماً كتلك التي شاهدها في أفلام الرعب، لم يكن يرغب في السكن فيها، وبالتالي أراد أن يُخَفِّض من سعر السكن حتى يجد مُبَرِّراً للرفض. قال لصاحب الغرفة:

- سوف أدفع عشرين يواناً في اليوم.

- كم يوماً تنوي المكوث هنا؟

- أسبوع واحد.

وافقه صاحب الغرفة على الفور. ثم استطرد قائلاً:

- إذا سألك الثلاثة الآخرون فلا تقل لهم إنك دفعت عشرين يواناً عن اليوم الواحد، فجميعهم قد دفعوا خمسة وعشرين. فَكَّرَ "دون هوانج" في نفسه قائلاً، السكن هنا أفضل من الغرفة التي بات فيها بالأمس على أي حال. ثم قال لصاحب الغرفة:

- طيب.. سأقول لهم ثلاثين يواناً.

ابتسم صاحب الغرفة ابتسامة ماكرة ثم انصرف.



7



وهكذا استقر به المطاف مؤقتاً في هذه الغرفة، فوق سرير مُكَوَّن من طابقين. جَهَّزَ فراشه وذهب إلى الحمَّام المجاور الذي يكاد يتسع لفرد واحد للاستحمام، وحمل حقيبته وخرج للشارع. جلس في أحد المطاعم ليتناول المكرونة. بينما كان يفكر إلى أى مكان يذهب ليبيع بضاعته، عليه أن يستغل نصف الوقت المتبقي من اليوم. ذهب إلى جامعة بكين وفرش بضاعته في الشارع المجاور لمبنى 32.

اكتسب هذا الشارع شهرته بسبب الطلاب الذين يرتادونه؛ خاصةً في فترة ما قبل التخرج كي يبيعوا كتبهم ومتعلقاتهم القديمة، وبمرور الوقت أصبح من الشوارع التجارية الحيوية. بحلول المساء كان "دون هوانج" قد باع أكثر من عشرة أسطوانات، من بينها واحدة قايضها بكتاب من بائع كتب قديمة كان يجاوره. أخذا يتجاذبان معاً أطراف الحديث، وفي حالة خلو الشارع من الزبائن، كانا يتبادلان النظر في بضاعةِ كُلٍّ منهما.

وَجَدَ "دون هوانج" لدى جاره كتاباً عن النقد السينمائي، ولما تصفحه، وقعت عينه على مقالة عن فيلم "Run Lola Run"، شد انتباهه؛ فقد سبق أن باع من هذا الفيلم اثنين وثلاثين نسخة، وهو ما جعله مُصِرّاً على قراءة المقالة حتى النهاية. في الحقيقة، إنه لم يحب تلك المقالة في البداية، فهو لم يفهم ما هي الرسالة الحقيقية التي يريد المخرج أن يوصلها للجمهور. ولكن هذه المقالة بها الكثير من الحقائق والمبررات التي أنارت عقله؛ بل حتى إنه كان يعض أنامله أثناء القراءة دون أن يدري.

نظر "دون هوانج" إلى جاره بائع الكتب، قائلاً:

- يا إلهي، فيلم واحد يحوي كل هذه المعاني!

وأخذ يُقَلِّب في باقي أجزاء الكتاب، قائلاً:

- يا له من كتاب رائع.

ربما هناك سبب آخر جعله يمتدح هذا الكتاب، هو أنه فهم مضمون المقالة، فقد كان يعتقد أن مثل هذه المقالات لا يفهمها أمثاله، مما جعله يشعر بالزهو، الآن يشعر وكأنه واحد من أولئك الذين يُطلقون على أنفسهم مثقفين.

قال بائع الكتب:

- اشتريه إذا كنت ترى أنه رائع لهذا الحد، كلانا زملاء في المهنة، وسأبيعه لك بنصف الثمن الأصلي وهو عشرين يواناً.

- وما الداعي لأن أدفع نصف الثمن.. يمكنك أن تأخذ أي أسطوانة تحبها مقابل هذا الكتاب، ما رأيك؟

اختار بائع الكتب أسطوانة لفيلم "A Better Tomorrow" للممثل

"تشو يون فات"، والذي كان من أشد المعجبين به.

ظل "دون هوانج" يقرأ في هذا الكتاب حتى بعد عودته إلى الغرفة التي يسكن بها. عاد يومها مبكراً. اغتسل وصعد إلى سريره، وبدأ في قراءة الجزء الخاص بنقد أفلام هونج كونج. فهو مُلِم بهذه النوعية من الأفلام وقد شاهد معظم تلك التي تعرَّض لها الكتاب بالنقد، لذلك ملأته الحماسة أثناء مطالعة هذا الجزء. عاد الثلاثة الآخرون بالتوالي بعد العاشرة والنصف مساءً. الأول كان سميناً، يستعد لخوض امتحان الماجستير بقسم اللغات الأجنبية في جامعة بكين. والثاني، نحيل يرتدي نظارة طبية وبذقن مدببة، وبدا كمن عنده سوء في التغذية، شكله العام يشبه شكل علامة التعجب المقلوبة، وكان يستعد لخوض امتحان الماجستير في الرياضيات. أمَّا الثالث، فقد كان ضعيف النظر ولكنه عادةً ما كان ينظر للآخرين من أعلى النظارة التي كانت تتدلى أسفل أنفه، وكان يستعد لخوض امتحان الدكتوراة في الفلسفة. لم يكن لديهم أي رد فعل تجاه الضيف الجديد، فقط بادروه بالسؤال، "أنت الساكن الجديد؟" وذهب كل واحد منهم ليأخذ دوره في دخول دورة المياه. كان طالب الدكتوراة أول من دخل دورة المياه، وبعدما خرج شاهد "دون هوانج" وهو يقرأ كتاب النقد السينمائي، فسأله:

- هل تنوي خوض امتحان قسم الفنون أم قسم اللغويات؟

فَكَّرَ "دون هوانج" قليلاً قبل أن يجيبه:

- قسم الفنون.

لأنه كان يشعر بأن لا فائدة من دراسة اللغويات، فماذا سيعمل بعد

التخرج؟ سكرتيراً، يقوم بتدوين خطابات رؤسائه في العمل، أو ينوب عنهم في كتابة الخطابات. أما الفنون فتبدو مثيرة للاهتمام والفضول.

سأله طالب الدكتوراة ثانيةً:

- هل تخوض امتحان الماجستير أم الدكتوراة؟

- الدكتوراة

ثم قال بلهجة المتواضع:

- أخوض الامتحان فقط من أجل الترفيه ليس إلا.

التفت إليه طالب الدكتوراة فجأة ونظر من فوق نظارته السميكة نظرة غير مفهومة جعلت "دون هوانج" يشعر بأنه شخص غير طبيعي وأردف قائلاً:

- نحن زملاء إذن، فأنا أيضاً أخوض امتحان الدكتوراة، ولكن في الفلسفة.

حاول "دون هوانج" أن يعدل من جلسته، فقد شعر بالاضطراب، لقد كذب لتوه كذبة كبرى، والسبب في ذلك يعود إلى أن علم الفلسفة في نظره يُعد من أكثر العلوم رقياً واحتراماً. كان مُغرماً بهذا العلم منذ بدأ يدرس في مدرسته المغمورة. فهو لا يعرف من أي باب يكون الدخول إلى هذا النوع من العلوم، غير المرئي وغير الملموس، وهذا بالنسبة له نوع من ممارسة السحر. عندما رآه "دون هوانج" قد توقف عن الأسئلة، استلقى على سريره مادًا رأسه للأعلى تماماً كعنق الأوزة مستمراً في مطالعة الكتاب الذي بين يديه.

لم يعره الاثنان الآخران أي انتباه، فليس لديهم أي اهتمام بطالب

دكتوراة في الفنون، وظلا صامتين حتى استغرقا في نومهما، كان كل ما قالاه له فقط هي عبارة: "أنت الساكن الجديد؟" كان "دون هوانج" قلقاً من أن يكتشفوا هويته، ولكنه لاحظ أن ثلاثتهم نادراً ما يتجاذبون أطراف الحديث، وهو ما جعله يشعر بالاطمئنان. فعادةً ما يكون هناك جدال بين رفقاء المهنة أو الدراسة، ولكنهم لم يدخلوا معه في أي جدال. كان الموضوع غير مفهوم بالنسبة له، ولكنه استمر في مطالعة كتابه. فقط انتابه شعور بالندم، فلو كان اجتهد في دراسته لربما كان الآن طالب ماجستير أو دكتوراة.. من يدري، أو على الأقل طالب في معهد السينما، فهو الآن على دراية بالعديد من الأفلام.

في صباح اليوم التالي، ذهب الطلاب الثلاثة إلى الجامعة لتناول الإفطار ومطالعة الكتب. أما "دون هوانج" فلم يكن مستعجلاً؛ لأنه لن يأتي أحد ليشتري أسطوانات أفلام في مثل هذا الوقت المبكر. استمر في نومه حتى الثامنة صباحاً، ثم خرج لتناول طعام الإفطار عند أحد الباعة على مقربة من منطقة "تشنج تسي"، وبعدها قرر أن يذهب ناحية "جامعة الشعب" ومتجر "شوانج إن" ليبيع أسطواناته. ركب أتوبيس النقل العام مروراً بشارع "تشونج قوان تسون" الذي كان مزدحماً منذ الصباح وظل كذلك حتى المساء. ما الفائدة من بناء طريق تتكدس فيه السيارات بهذه الطريقة؟ ظل يتساءل لعدة دقائق فيما لم يتحرك الأتوبيس سوى أمتار قليلة، حينها قرر أن يذهب على قدميه. وصل أمام بوابة الجامعة فوجد الجو هادئاً ولا مؤشر على وجود زبائن، ومن ثم قرر ألا يُضَيِّع الكثير من

وقته وذهب إلى متجر "شوانج إن". ما إن عبر الطريق حتى أحاطت به بعض النسوة اللاتي يحملن أطفالهن يسألنه:

- يا أخ، أتريد شهادات أو فواتير مزورة؟

استغرب قائلاً:

- أتبيعون الفواتير المزورة أيضًا؟

- نعم، نبيع الفواتير من زمان، كم واحدة تريد؟

- لمَّا كنت أبيع الشهادات المزورة لم تكن هناك فواتير.

نظرن إليه باستغراب وهممن بالانصراف فيما بكى أحد الأطفال فنهرته أمه قائلة:

- لماذا تبكي؟ أيها العبيط.

شَعَرَ "دون هوانج" بالرضا، وقال في نفسه، "تبًا، هي لا تشتم الطفل حقًا، وإنما تقصدني أنا". هو حقًا لم يسمع عن فواتير مزورة من قبل.. يبدو أن الطلب كثير عليها.

لم يكد يخطو خطوات قليلة حتى لحقت به امرأة أخرى تحمل طفلاً، كانت نحيلة وسمراء، تُوحي ملامحها بأنها فتاة ريفية. اقتربت منه قائلة:

- هل تريد أسطوانات؟ لديّ جميع الأنواع.

نظر "دون هوانج" إلى يديها الفارغتين، قائلاً باستغراب:

- وأين هي الأسطوانات؟

- تعال معي.. الأسطوانات في مكان قريب من هنا.

أشارت بيدها إلى مبنى قريب في الجهة المقابلة من الشارع. كان "دون

هوانج" ينوي الذهاب معها ولكنه شعر أنه لا فائدة من ذلك، ومن ثم تظاهر بأنه استلم لتوه رسالة نصية على تليفونه، وأن هناك شخصاً ما بانتظاره وعليه الذهاب على الفور. شعرت المرأة بالخيبة، بينما أخذت تقول له بصوتٍ عالٍ:

- إذا اردت أسطوانات ستجدني هنا دائماً.

بعد ذلك قابل "دون هوانج" العديد من باعة الأسطوانات ومزوري الأوراق. اكتشف حينها أن معظم من يعمل بتلك المهنة هم من النساء، وأغلبهن يحملن أطفالاً. بالطبع حمل الأطفال معهن يجنبهن مضايقات الشرطة، فمن سيكون المسئول عن رعاية الطفل حال القبض عليهن! كما أنه اكتشف أمراً آخر هو أن هذا المكان ملئ بالشرطة، وإلا ما كانت تلك السيدة لتخرج فارغة اليدين تصطاد الزبائن بعيداً عن أعين الشرطة! فَكَّرَ "دون هوانج" وقرر أن عليه الابتعاد عن هذا المكان، فلا داعي لأن يجلب لنفسه المزيد من المتاعب. وغادر مُتجهاً إلى منطقة "مو دان يوان" القريبة من شارع "بي تاي بينج تشوانج".

ظل يتردد على هذا المكان يومين. لم تكن تجارته على ما يرام، ولم يستطع الاستمرار على هذا الحال في اليوم الثالث. باع جميع أسطوانات الأفلام الشهيرة الموجودة لديه، وأصبح مجال الاختيار للزبائن أضيق فأضيق، والأسطوانات المتبقية لا تلفت حتى نظر الزبون. في اليوم الثالث لم يكن هناك زبائن، وهو ما جعله يلملم بضاعته مبكراً، حينها شعر بالحيرة والتخبط، فهو لا يعرف من أين يأتي بأسطوانات جديدة. أحس

بالندم لأنه لم يذهب مع "شياو رونج" حينما كانت تشتري الأسطوانات الجديدة. على أي حال ربما لم تكن " شياو رونج" لتوافق أن يذهب معها، فهو يعرف أن هذه الأماكن تخضع لنوع من السرية، وليس مُتَاحَاً للجميع الدخول إليها. الحال نفسه تماماً حينما كان يعمل مع "باو دينج" في مهنة تزوير الأوراق، فهو لم يكن ليُخبر أحداً آخر أين يوجد المكان الذي تتم فيه عملية التزوير. فَكَّرَ "دون هوانج" عدة مرات أن يتصل بـ"شياو رونج"، وفي كل مرة كان يطلب رقمها ثم يغلق التليفون مباشرةً. هو يعرف تماماً أنه لا داعي للغيرة عليها، ولكن في كل مرة يتذكر أنها الآن في أحضان رجل آخر اسمه "كوانج شان"، كان يشعر بغصة في قلبه.

ذهب إلى أحد المطاعم وتناول ثلاث قطع من الفطير المطهو بالبخار حتى يكظم غيظه. بعدها سار في طريقة متوجهاً إلى منطقة "تشنج تسي". مر في طريقه ببعض الباعة الذين يبيعون الكتب المُقلدة بعشر يوانات وعشرين يواناً. اشترى كتاباً آخر عن النقد السينمائي، لأنه انتهى من قراءة الكتاب الذي معه. وبينما كان على مقربة من ملعب "هاي ديان" الرياضي، اتصلت به "شياو رونج". ما إن رد عليها حتى سألته:

- هل فرغت من بيع أسطواناتك؟

- نعم.

- ولماذا لم تتصل ما دمت قد فرغت من بيعها؟

- فرغت من بيعها حالاً.

ساد الصمت بينهما لبعض الوقت، ثم قالت له:

- تعال لأعطيك أسطوانات جديدة، فهو غير موجود بالبيت.

ثم أغلقت التليفون.

وصل "دون هوانج" إلى منطقة "فو رونج لي"، كانت "شياو رونج" قد جهزت له الأسطوانات كل نوع على حدة. لم ينظر أي منهما إلى الآخر، فقط كانا يتحدثان وأعينهما تنظر صوب الأسطوانات، وكأنهما يتحدثان إلى الشخصيات الموجودة على أغلفة الأسطوانات.

قالت له:

- هذه الكمية تكفيك لثلاثة أيام، وبخصوص النوعية الأخرى من الأفلام فهي موجودة أسفل السرير، يمكنك أن تأخذ منها ما تشاء. انحنى "دون هوانج" بجسده للأسفل ومد يده أسفل السرير وأخرج كمية من الأسطوانات، التفت برأسه ونظر إلى قدميّ "شياو رونج" التي كانت تقف خلفه مرتدية جورباً رمادي اللون، حينها انتابه شعور بالدفء. رفع رأسه إلى أعلى بينما كان ينظر إلى ساقيها وصولاً إلى صدرها ثم وجهها، وعندما تلاقت أعينهما أشاحت هي بوجهها إلى الجهة الأخرى. نهض "دون هوانج" ببطء، ودفعها ناحية السرير، ثم رمى الأسطوانات التي كانت بيده على الأرض. صاحت فيه "شياو رونج" وهو ما جعله يشعر بالذهول بسبب ما يفعله، ولكنه لم يستطع أن يتوقف، بل لم يكن ينوي أن يتوقف. حاولت أن تدفعه بيدها مرة تلو الأخرى ولكنها لم تتمكن، ومن ثم ارتمت في أحضانه وأخذت تضمه إليها بشدة.

بدأت العلاقة بينهما حميمية وملتهبة، ثم أخذت تفتر وتبرد حتى بدت كفيلم صامت قديم، وانتهت بأصوات تنهدات طويلة. لم يكن "دون

هوانج" يعرف ماذا عليه أن يفعل حينها، ومن ثم وضع رأسه على صدر "شياو رونج" دون أن ينطق بأي كلمة. بعدها اعتدل من نومته ثم قام يرتدي ملابسه، ولملم أسطواناته المبعثرة على الأرض. حمل حقيبته مستعداً للانصراف، حينها سألته "شياو رونج":

- هل أعجبتك المعيشة في بكين؟
- أعتقد أنها جيدة.
- ولكني لا أريد العيش هنا، أريد العودة إلى بلدتي.

فهم المقصود من تلك العبارة، فهي تقصد أن عليها البقاء مع "كوانج شان" ربما تعود معه يوماً ما إلى بلدتها. أما بالنسبة لـ"دون هوانج" فكل ما دار في رأسه حينها هو أولئك النسوة اللاتي يحملن أطفالهن ويتجولن في الشوارع يسألن المارة إذا كان هناك من يريد شراء أسطوانات أو أوراق مزورة. التفت إليها بوجهه وقد لاحظ أن علامات التقدم في السن أخذت تبدو على وجهها. قال في نفسه: "لا بد أن هناك فرداً جديداً سينضم إلى أولئك النسوة".

قبل خروجه من الباب قال لها:

- نعم ينبغي عليكِ العودة.

لم يتطرقا إلى الحديث عن المرة المقبلة، وماذا بعد أن ينتهي من بيع هذه الأسطوانات. ولذلك ففي اليوم التالي اتصل بها على مضض وقال لها إن طالباً في الجامعة يريد شراء خمس وثلاثين نسخة من فيلم "Uber Berlin Der Himmel". أغلقت "شياو رونج" التليفون، واتصلت به

بعد قليل تطلب منه الحضور في المساء ليأخذ الأسطوانات.

عندما وصل إلى بيتها، وجدهما يتشاجران. "كوانج شان" شاب نحيل طويل القامة في الثلاثينات من عمره، له شارب خفيف منسَّق. ما إن دخل "دون هوانج" حتى توقفا عن الشجار. ابتسم له "كوانج شان" ابتسامة خفيفة ثم صافحه قائلاً:

- لقد سمعت "شياو رونج" تتحدث عنك، أخبرتني أنها تعرفت إليك حديثاً وأنك الآن بمثابة أخيها الأصغر، كيف حالك وحال تجارتك؟

- جيدة إلى حد ما.

شاهد "دون هوانج" "شياو رونج" تجلس على السرير بالكاد تلتقط أنفاسها من شدة البكاء. كان قد شاهد أمه تبكي في مثل هذه الحالة من قبل عندما كانت تتشاجر مع والده طالبة الطلاق.

نظر إليها قائلاً:

- ماذا بك يا أختي؟

أشار إليه "كوانج شان" قائلاً له:

- النساء دائماً يختلقن المشاكل.. ماذا تعتقد أن يكون قد حدث لها!

ارتفع صوت "شياو رونج" بالبكاء حينها.

سأله "دون هوانج" بوجه يملؤه الغيظ:

- ما الذي فعلته بها؟

- وما الذي يعنيك في هذا الأمر، خذ أسطواناتك وارحل من هنا.

ثم رمقه بطرف عينه مستطرداً:

- اترك ثمن الأسطوانات قبل أن تذهب.

لم يتحرك "دون هوانج"، فقالت "شياو رونج":

- خذ الأسطوانات واذهب، أم تنوي ترك هذا العمل.

كانت قد توقفت عن البكاء، ونهضت من مكانها ثم دفعت "دون هوانج" بيدها حتى يغادر المكان. دفعته عدة مرات دون أن يتحرك، وكان وجهه قد احمر من شدة الغيظ. لم يكن "كوانج شان" يعرف حقيقة العلاقة بينهما، ولكنه لاحظ أن هناك أمراً غير طبيعي، وهو ما دفعه للقول:

- ماذا تريد، زوج يتشاجر مع زوجته، ما الذي يضيرك في ذلك؟

حينها قالت "شياو رونج":

- من هي زوجتك تلك، ليس هناك علاقة تربطني بك إطلاقاً.

قال لها:

- لا تعاندينني، فلو حدث أن جاء أخوك الحقيقي سأضربك أمامه أيضاً.

لم يتمالك "دون هوانج" نفسه حينها فلكمه بيده في وجهه حتى سال الدم من أنفه. لم تكن "شياو رونج" تعتقد أن "دون هوانج" سريع الغضب والغيرة عليها إلى هذه الدرجة. حاولت بكامل طاقتها أن تدفعه بعيداً حتى لا تسوء الأمور أكثر فأكثر، ولكنه لم يتحرك خطوة. استشاط "كوانج شان" غضباً وقال له:

- أنت تضربني يا ابن العاهرة؟!

باغته "دون هوانج" بلكمة ثانية أعلى عينه اليسرى قائلاً:

- نعم ولن أتوقف حتى أبرحك ضرباً.

نظر إليهما "كوانج شان" وقال بلهجة بكينية خالصة:

- أوكي، أوكي، تحضرين شخصاً تَدَّعِي بأنه مثل أخيك لكي يضربني، سوف أُلقنكما درساً لن تنسوه.

سخر "دون هوانج" من لهجته البكينية التي تحدث بها قائلاً:

- يا لك من شخص وقح، هل تظن أنك عندما تتحدث بهذه اللهجة أصبحت فعلياً من أهل العاصمة؟

توسلت إليه "شياو رونج" قائلة:

- أرجوك لا تتسبب لي في متاعب أكثر من ذلك.

أصابته كلماتها بالحنق الشديد ورمى المال الذي كان قد أعده مسبقاً داخل الغرفة وغادر المكان. ولكي يحفظ "كوانج شان" ماء وجهه، تبع "دون هوانج" بسيل من الشتائم مُحَاولاً اللحاق به. توقف "دون هوانج" ثم التفت إليه قائلاً:

- أوكي، لقد ضربتك، ماذا تريد الآن؟

رجع "كوانج شان" خطوة للخلف قائلاً:

- وبأي حق ضربتني؟

أجابه "دون هوانج" بلهجة أقل حدة قائلاً:

- عليك أن تعاملها معاملة جيدة، فأمثالك لا يستحقون مثل هذه المرأة.

- لماذا عليّ أن أعاملها معاملة جيدة بينما لا تعاملني هي معاملة جيدة؟ ومن أنت لتملي عليّ أفعالي، تعال واضربني ثانيةً إن أمكنك!

كان "كوانج شان" يصرخ فيه بصوتٍ عالٍ حتى أن عروق رقبته قد برزت. فَكَّرَ "دون هوانج" أن يصعد مرةً أخرى ويبرحه ضرباً، بينما كانت "شياو رونج" في الأعلى تصرخ فيه هي الأخرى تطلب منه أن يغادر،

فقد كانت تخشى أن تسوء الأمور أكثر من ذلك.

شعر "دون هوانج" بالفشل، ثم أخذ يسخر من نفسه، فقد أدخل نفسه في تحدٍّ ليس من حقه أن يخوضه، فهو في نظر "كوانج شان" ليس سوى شخص تعتبره "شياو رونج" بمثابة أخيها الأصغر.

نادى عليها من الأسفل قائلا:

- اطمئني، فسوف أدعوه لتناول كأسين من الخمر ثم نصفي الأمور بيننا.

ثم نادى على "كوانج شان" قائلاً:

- هيا بنا، سأعزمك على حسابي.

لم يكن "كوانج شان" قد استعاد وعيه مما حدث، ومن ثم رد عليه قائلاً:

- نشرب خمر؟ أي خمر تلك التي تدعوني لأشربها معك؟



8



جلس الثلاثة في مطعم صغير بالقرب من منطقة "فو رونج لي"، وقام "دون هوانج" بطلب عشرة زجاجات من البيرة وطبقين من المزة وعشر أسياخ من اللحم المشوي. لم يكن "دون هوانج" مهتماً بالشراب في تلك الليلة، فقط أراد أن يجعل من الشرب حُجَّةً لكي يُصَفِّي أموره مع "كوانج شان". فلا مجال للعراك ثانية، و"شياو رونج" معهما. وبهذه الدعوة تكون الأمور بينهما قد هدأت، ولا ضرر من جعله يسكر هذه الليلة.

طلب "دون هوانج" من الجرسون أولاً أن يحضر عشرة زجاجات. نظر إليه "كوانج شان" مستغرباً ثم قال:

- عشرة زجاجات؟

تردد للحظات ثم أردف:

- أوكي، فلتكن عشرة زجاجات.

كان قد خسر حالاً عراكاً بالأيدي، ولا ينوي أن يخسر عراك الشراب أيضاً.

لم يكن "دون هوانج" ينوي الخوض معه في أحاديث فارغة، فقط كل ما يهمه هو أن يجعل "كوانج شان" يشرب حتى يسكر، وهكذا فكلما فرغ "كوانج شان" من شرب كأسه صب له "دون هوانج" كأساً آخر. لم يكن دفعه للسُكْر بالأمر اليسير، فـ"كوانج شان" معتاد على الشرب. وقد حاول أن يبطئ من وتيرة الشرب ولكنه لم يفلح، فقد كان يريد التحدث إلى "دون هوانج" ولكن هذا لم يعطه فرصة للحديث. أخذ "كوانج شان" يسكر شيئاً فشيئاً، وبدأ لسانه يثقل شيئاً فشيئاً، وظهرت ملامحه أكثر هدوءاً وألفة وكأنه صديق قديم قابله فجأة. وبالرغم من أن وجهه احمر وعنقه انتفخ؛ إلا أنه بدا كشخص طيب مقارنة عما كان عليه أثناء العراك.

سأله "كوانج شان":

- هل أنت فعلاً بمثابة أخيها الأصغر؟

- وهل تشك في ذلك؟

- ولهذا ضربتني؟

- أنت الذي تعاملها بطريقة سيئة.

- هي التي تفعل وليس أنا، هل تعتقد أنني سعيد هكذا، أنا أعمل ليل نهار من أجل أن أكسب المال وأجد مكاناً استقر فيه في هذه المدينة.

- هذا شأنك، فهي تريد العودة إلى بلدتها.

- وماذا يوجد هناك ليجعلها تفكر في ذلك؟ ذهب أم فضة؟ لقد غادرنا بلدتنا سوياً منذ خمس سنوات، هل تظن أنه بإمكاننا العودة ونحن بتلك الحالة؟ وبأي وجه نعود؟ أضف إلى ذلك أنني لم ألبث أن بدأت في هذه التجارة

منذ فترة وجيزة، وعليّ أن أستمر فيها حتى تزدهر وتكبر، أريد أن يعرف الناس أن "كوانج شان" ليس شخصاً فاشلاً، ويعرف كيف ينجح في عمله.

صب "دون هوانج" له كأساً آخر ونظر إليه مُبتسماً ثم قال:

– أنا متأكد أنك ستنجح.

وضع "كوانج شان" كأسه على الترابيزة وأحنى رأسه للخلف واعتدل في جلسته واضعاً قدمه اليمنى فوق اليسرى قائلاً: "نحن أخوة إذن". ثم أردف قائلاً:

– ألم تخبرك "شياو رونج" أنني فتحت متجراً لبيع الأسطوانات؟ بالطبع المتجر لا يخصني وحدي، لقد تشاركت فيه مع بعض الأصدقاء، والتجارة الآن لا بأس بها، فأمثالك ممن يبيعون الأسطوانات بالقطعة جميعهم يأتون إلى متجري لشراء الأسطوانات بالجملة، هل تظنني أترك مثل هذه التجارة الرائجة وأعود إلى بلدتي؟ بالطبع ممارسة التجارة هنا ليست بالأمر اليسير، فهذه بكين وليست بلدتنا الريفية، هل تفهم ما أعنيه؟

– لا أفهم.

– أنت مثل "شياو رونج" تماماً، لا تفهمون الأمور بسهولة. لقد أخبرتها من قبل، أنا الآن صاحب عمل، وأنتِ الآن زوجة صاحب العمل، لم يعد علينا التجول في الشوارع لبيع الأسطوانات، علينا فقط أن نُدير المتجر ونجني المال، ولكنها ترفض ذلك الموضوع تماماً، كل ما تفكر فيه هو العودة إلى البلدة، تعيش حياتها كربة منزل تهتم بزوجها وأطفالها، أليس هذا تفكير القرويين السذج؟ لماذا لا تفكِّر بطريقة أهل المدن؟ هل تفهم

طبيعة حياة أهل المدن؟ طبعاً لا تفهمها، فأنت وهي تفكران بالطريقة نفسها؛ تحنون للقديم وتنبذون الحديث. هي تعتقد أنها إن دخلت المتجر فلن تخرج منه وبالتالي لن تعود إلى بلدتها، ولذا ترفض تماماً الذهاب للمتجر، تذهب إلى هناك فقط عندما تكون في حاجة للمزيد من الأسطوانات. أنا أعرف أنها امرأة جيدة، ولكن عيبها الوحيد أنها لا تفهمني. ولو استطاعت أن تمارس عملاً آخر لفعلت وتركت بيع الأسطوانات، فهي تريد أن تنفصل بعملها بعيداً عني.

- أنا أتفهم الأسباب التي تريد من أجلها العودة إلى بلدتها.

- وأنا أيضاً أعرف، قلت لك حالاً، تفكير القرويين السذج.

- أنت مخطئ، فهي امرأة في الثامنة والعشرين، لم تعد شابة صغيرة، كل ما تريده هو حياة مستقرة، بيت وزوج وأطفال، هل تفهم ذلك؟

- قلت لك إنك لا تفهمني.

ثم تجرَّع كأساً من البيرة مرةً واحدة مُعرباً عن رفضه لكلام "دون هوانج"، ثم استطرد قائلاً:

- لماذا أحاول جني المال بكل الطرق؟ أليس لكي أوفر لها بيتاً مستقراً وحياة سعيدة؟

أحضر عامل المطعم أسياخ اللحم المشوي ووضعها أمامهم مما تسبب في قطع حديثهم.

واصل "دون هوانج" جداله معه قائلاً:

- أنت تفعل كل هذا من أجل نفسك فحسب، لا داعي للإنكار.

قال "كوانج شان":

- أقسم لك أني لا أفعل ذلك لنفسي.

ثم أمسك بسيخ اللحم المشوي وأخذ يقضم منه، حينها تَغَيَّرت نبرة صوته حين استطرد قائلاً:

- نعم من أجل نفسي، فكل رجل يجب أن يكون له طموحه، وأنا لا سبيل أمامي سوى ذلك، فمن لا يريد أن يكون ناجحاً؟ أتريد أن تخبرني أنك لا تريد أن تبني لنفسك مستقبلاً في هذه العاصمة؟ نعم، أنا لدي أفكاري الخاصة بي، ولكن هل تستطيع أن تجزم أن أفكاري وتجارتي ومالي لا علاقة لهم بهذه المرأة؟

استمر في قضم اللحم ثم توقف عن الحديث لبعض الوقت، وسأله فجأة:

- أريد منك كلمة حق يا أخ، ماذا كنت لتفعل لو كنت مكاني؟ هل كنت تترك عملك وتجارتك وتعود إلى بلدتك.. أم تبقى هنا؟

- نحن شخصان مختلفان تماماً، فأنا لست مثلك.

- لنفترض أنك مكاني، ماذا كنت لتفعل؟

- لو كنت شخصاً أعزب بمفردي، فبالتأكيد لن أعود، أما في وجود امرأة مثل "شياو رونج"، فلا أعرف حقيقة ماذا كنت فاعلاً.

ضحك "كوانج شان" قائلاً:

- لا تمزح معي يا أخي، فالرجال جميعهم خُلقوا من نفس الطينة.

شَعَرَ "دون هوانج" بالضيق من كلامه، لقد تعارك معه حالاً، فكيف يقول الآن إنه من نفس طينته؟ كما أنه كان مُغتاظاً من ذلك الشارب المتدلي أسفل أنف "كوانج شان". تمنى لو لكمه بقبضته مرةً أخرى،

ولكنه تمالك نفسه قائلاً:

- لنشرب في صحتك.

هز "كوانج شان" شاربه قائلاً:

- طبعاً سأشرب، حتى لو منعتني سأستمر في الشراب.

كان "كوانج شان" يشرب منتشياً، أمَّا "دون هوانج" فكان يشرب مغتاظاً. كان يشعر باليأس في داخله، فهو يعرف تماماً أنه لو كان لديه امرأة مثل "شياو رونج" لكان قد تحول إلى شخص آخر مثل "كوانج شان".

استمرا في الشرب، وكانت النتيجة هي أن "دون هوانج" سَكِرَ بينما لم يسكر "كوانج شان". بعدما خرجا من المطعم، شَعَرَ "دون هوانج" بالغثيان الشديد وظل يتقيأ. أخرج كل ما في بطنه من خمر ولحم، ظل يتقيأ حتى خرجت عصارة معدته، وتدلى المخاط من أنفه وانهمرت الدموع من عينيه. عرض عليه "كوانج شان" أن يوصله إلى بيته، ولكن "دون هوانج" رفض طالباً منه أن يعود هو إلى بيته. هَمَّ "كوانج شان" بالانصراف والتفت إلى "دون هوانج" قائلاً:

- إذا أردت أسطوانات جديدة بعد ذلك يمكنك الحضور إلى متجري مباشرةً لتأخذ ما تريد.

جلس "دون هوانج" على حافة نهر "وان تشيوان" حتى منتصف الليل وعاد إلى الغرفة التي يسكن بها. كان الثلاثة الآخرين قد ناموا وتعالت أصوات الشخير الصادرة عنهم. اغتسل ثم صعد إلى سريره ونام

حتى العاشرة والنصف من صباح اليوم التالي. فور استيقاظه شاهد ذلك النحيل الذي ينوي خوض امتحان الدكتوراه في الفلسفة وهو يُقَلِّب في حقيبة الأسطوانات التي كان وضعها على المنضدة بعد عودته ليلة الأمس. كان ممسكاً بأسطوانة فيلم إباحي ويحدق مذهولاً في صورة المرأة العارية على الغلاف.

اعتدل "دون هوانج" جالساً وقال:

- هل تعجبك؟ إن كانت تعجبك فهي هدية مني لك.

انتفض النحيل مذعوراً. دس الأسطوانة على عجل في الحقيبة مرة أخرى وتظاهر بالابتسامة قائلاً:

- لا أحب تلك الأشياء.

صمت قليلاً وأردف بصوتٍ منخفض:

- أقصد أن أقول إنه لا يوجد مكان أُشاهد فيه مثل هذه الأسطوانات.

هز "دون هوانج" رأسه قائلاً:

- صحيح، لو كان هناك جهاز مُشَغِّل أسطوانات لحلت المشكلة.

بدا ذلك النحيل مهتماً بباقي الأسطوانات الموجودة في الحقيبة، مما اضطر "دون هوانج" أن يستطرد قائلاً:

- لي صديق يبيع الأسطوانات، وطلب منى أن يبقي هذه الحقيبة عندي، وقد أساعده في بيع بعض منها.

سأله النحيل باستغراب:

- إذاً أنت تبيع الأسطوانات المقلدة؟

أجابه "دون هوانج":

- يمكنك أن تعتبرني بائع أسطوانات مقلدة.

لم يكن يريد أن يدخل معه في جدال. تظاهر بالتجاهل ثم نهض من سريره وذهب للاغتسال، فقد كان يشعر ببعض الصداع بسبب الخمر الكثير الذي شربه بالأمس. بعد ذلك ذهب لتوصيل الأسطوانات التي كان قد طلبها منه أحد الطلبة.

وصل أمام سكن الطلبة، كان الباب مغلقاً ولم يتمكن من الدخول، اتصل بذلك الطالب يطلب منه أن يأتي ليأخذ الأسطوانات. حضر الطالب وفتح له الباب وطلب منه أن يدخل معه فهناك الكثير من زملائه يريدون رؤية ما بحوزته من أفلام. كان سكناً خاصاً بطلبة الماجستير لقسمي اللغة الصينية والفنون. كان يوم سعد بالنسبة لـ"دون هوانج"، فبخلاف طلبة هذا المبني حضر أيضاً طلاب آخرون من مبان مجاورة لشراء الأفلام، فمعظمهم لديه أجهزة كومبيوتر، ومشاهدة الأفلام بالنسبة لهم لا تُمَثِّل مشكلة؛ وخاصةً الأفلام الإباحية. كما أنهم يشترون بكميات كبيرة. يُقَال إن أحدهم يكتب قصة قصيرة، وليس له حبيبة، والقصة بها أحد المشاهد الجنسية ولذلك فهو يجمع الأسطوانات الجنسية من مختلف الأنواع ليستند إليها في كتابة ذلك المشهد الجنسي. وبخلاف البضع وثلاثين أسطوانة التي كانت قد طُلِبَتْ منه، باع "دون هوانج" خلال ساعتين حوالي من أربعين إلى خمسين أسطوانة. ولم ينصرف من هناك إلا عندما سمع أن أحد المسئولين قادم لزيارة المكان. وبينما كان يغادر، اتفق مع نفس الطالب أن يأتي مرةً أخرى في الأسبوع المقبل.

بالرغم من أنها كانت صفقة كبيرة بالنسبة له، إلا أنه لا يمكنه الاعتماد على هذا المكان فقط؛ بل عليه أن يتجول في أماكن أخرى كما كان يفعل في السابق.

كانت ظروف المعيشة في الغرفة التي يسكن فيها سيئة للغاية، ولكن سعرها رخيص إلى حد ما، وليس عليه أن يدفع تكاليف الماء والكهرباء، كما أنه لا يريد تكبد مشقة وعناء البحث عن مكان جديد، ومن ثم عقد العزم على أن يسكن فيها حتى تتحسن ظروفه المادية، حينها يمكنه البحث عن غرفة فردية يسكن فيها، كما يمكنه أيضاً شراء جهاز تليفزيون ومُشَغِّل أسطوانات ومشاهدة العديد من الأفلام، فقد قرأ كتابين عن النقد السينمائي وأصبح أكثر اهتماماً بمشاهدة معظم الأفلام التي تعرض لها الكتابان بالنقد. انتهى الأسبوع الأول من السكن، ومن ثم دفع "دون هوانج" الإيجار لأسبوع آخر، واستمر في بيع أسطواناته، يخرج في الصباح ويعود في المساء، وقليلاً ما كان يتجاذب أطراف الحديث مع الثلاثة الباقين، مستمراً في التظاهر بأنه من دارسي الفنون. وفي صبيحة أحد الأيام المشمسة، ذهب "دون هوانج" إلى دكان حلاقة بالقرب من نهر "تشيوان خه" وحَلَقَ شعره بالكامل.

خرج من غرفته. سار في طريق صغير بالقرب من نهر "تشيوان خه" والحديقة المجاورة له، حيث مر بأربعة حلاقين متجولين، ذلك النوع من الحلاقين الذي يكاد أن ينقرض، كل ما هناك هو كرسي خشبي ذو مسند عالي، وطبق غسيل، وحامل للطبق، ووعاء للماء البارد وآخر للساخن،

وموس، ومبرد، وحلاق عجوز يرتدي نظارة ومعطفاً أبيض. حينها جالت بخاطره فجأةً فكرة أن يحلق شَعْرَه بالكامل. عندما كان صغيراً كان والده يحلق له شعره، تارةً يحلق له جانبي الرأس فقط، وتارةً يحلق له رأسه بالكامل. وعندما صار يافعاً، لم يكن يرضخ لرغبة والده، فوالده لا يعرف سوى هذين النوعين من الحلاقة. كان يريد الذهاب إلى صالونات الحلاقة مثل زملائه، فهناك فتيات جميلات يغسلن رؤوس الزبائن، كما أن الحلاقة هناك ليست مجرد حلاقة فحسب، بل قصّات حديثة وتصفيف عصري. ولكن الآن وبدون أسباب، طرأت على باله فكرة حلاقة الشعر بالكامل. ذهب إلى أحد الحلاقين وطلب منه أن يحلق له رأسه بالكامل.

مد الحلاق رأسه ونظر إليه فترة ليتأكد من أنه يريد بالفعل حلاقة رأسه بالكامل وابتسم ابتسامة تنم عن عدم الرضا، وكأنه قد انتهى من حلاقة رأس "دون هوانج" بالكامل وغير راضٍ عن النتيجة. استدار "دون هوانج" بجسده وجلس على ذلك الكرسي الخشبي ذي المسند الطويل الذي لم يجلس عليه منذ سنوات طويلة. على الكراسي الثلاثة الأخرى كان هناك ثلاثة زبائن من كبار السن. عجوز يحلق شعر عجوز. فتح الحلاق العجوز الراديو الموجود بجانبه. كانت الإذاعة تبث مقاطع من أغاني أوبرا بكين. لكنه حَوَّلَ مؤشر الراديو إلى تردد آخر يبث الأغاني الحديثة.

سأله الحلاق:

– هل تريد حلاقة عادية؟

– أريد حلاقة الرأس بالكامل.

– بالكامل؟

- نعم بالكامل.

أغلق "دون هوانج عينيه بينما أخذ العجوز يحلق له شعره، وكان الراديو يبث الأغاني الحديثة واحدةً تلو الأخرى، فيما أخذ العجوز يغني بعض المقاطع من أوبرا بكين. كانت أشعة الشمس الدافئة أشبه بيدين تتحسسان فروة رأسه التي بدأت تتعرى. شَعَرَ دون هوانج بإحساس غريب، يحلم وكأن الزمن يعود به للخلف، يعود به إلى مرحلة الطفولة، حينما كان يحلق له والده شعره بينما تغرب شمس أحد أيام الصيف الدافئة، وما إن ينتهي والده من الحلاقة حتى يهرول ليقفز في النهر المجاور لكي يغتسل، لا يرتدي أي شيء سوى قميص والده الكبير الذي يصل إلى ركبتيه، لا يرتدي حتى لباس داخلي، فقفزة واحدة عميقة في النهر تكفي للاغتسال من آثار الحلاقة.

شَعَرَ أن جسمه أصبح أخف وزناً، وخطواته أسرع، فذهب يومها إلى أربعة أماكن مختلفة لبيع الأسطوانات. عاد إلى الغرفة التي يسكن بها في الحادية عشرة مساءً، وجد طالب الدكتوراه النحيل في انتظاره، ما إن دخل حتى سأله النحيل:

- هل رأيت تليفوني المحمول أم لا؟

أجابه "دون هوانج" دون أن يلتفت إليه:

- - لا.. لم أره.

ثم وضع حقيبته وذهب إلى دورة المياه. بعدما خرج من دورة المياه، كانت الأجواء على غير ما يرام؛ كان طالبا الماجستير مثل الفئران التي

تبحث عن طعام، يفتشان في جميع أنحاء الغرفة، بينما كان طالب الدكتوراه النحيل يُحَدِّق فيه بنظرة يملأها الشك والريبة.

سأله ثانيةً:

- حقيقي، لم تره؟

- لا.. لم أره.

ثم هز رأسه نافياً تحسباً لأن يكون ضعيف السمع.

قال طالب الماجستير في الرياضيات بلهجة متهكمة:

- إذن هناك عفريت يقطن معنا.

رد عليه طالب الماجستير الآخر:

- بالتأكيد هناك عفريت، لنبلغ الشرطة إذن.

نظر "دون هوانج" إليهما، بينما كانا يحدقان النظر فيه، وقفز للخلف رافعاً يده للأعلى قائلاً:

- وأنا موافق على ذلك الاقتراح.

قام طالب الدكتوراه النحيل بطلب الشرطة. التزم جميعهم الصمت حتى وصلت الشرطة. سألهم الشرطي عدة أسئلة ثم اصطحبهم معه إلى قسم الشرطة لعمل محضر بالواقعة. تم استجوابهم كل فرد على حده، وكان أول من تعرض للاستجواب هو طالب الدكتوراه النحيل، ثم طالب الماجستير في اللغة، تبعه طالب الماجستير في الرياضيات، وكان آخرهم "دون هوانج". كانت الساعة حوالي الواحدة وعشرين دقيقة فجراً حينما طُلب للاستجواب، قبلها كان يجلس على كرسي الانتظار محدقاً النظر إلى فتاتين تجلسان أمامه في الجهة المقابلة. حضرتا لعمل محضر، فقد سرقت

نقود إحداهما من سكنهما المشترك، الواقعة نفسها تقريباً ولكن الاختلاف في الشيء المسروق. كانتا تتحدثان بالفصحى وإن كان يتخللها الكثير من اللهجة المحلية. كما أن لهجتيهما المحلية مختلفة عن بعضهما البعض، مما ينم عن أنهما من مكانين مختلفين. إلا أن طريقة لبسهما وصدريهما الممتلئين، وطريقة جدالهما وحديثهما غير المنقطع، جعله لا يشعر بمرور الوقت. فهو الآن أكثر هدوءاً عن المرة السابقة التي جاء فيها إلى قسم الشرطة عندما قُبِضَ عليه. كان يشعر أنه جاء إلى قسم الشرطة في هذا الوقت المتأخر من الليل خصيصاً لمشاهدة هاتين الفتاتين والاستماع إلى حديثهما ليس إلا.

سأله الشرطي:

-حقيقي.. لم تره؟

- نعم.. لم أره.

كان الشرطي قد بدأ يشعر بالإرهاق. أشعل سيجارة وسحب منها نفساً عميقاً وحبسه طويلاً حتى نفثه من فمه، وسأله من خلف الدخان:

- سمعت أنك تبيع الأسطوانات المقلدة، هل هذا صحيح؟

هنا شَعَرَ "دون هوانج" بالقلق، لكنه أجابه بسرعة:

- لا أبيعها؛ بل أقوم بمساعدة أحد الأصدقاء لفترة مؤقتة.

تابع الشرطي سؤاله بينما كان يُدَوِّن ما يقوله "دون هوانج":

- هل تعرف أن بيع الأسطوانات المقلدة مخالف للقانون؟

أجاب "دون هوانج":

- نعم أعرف، أعرف، سأعيدها إلى صديقي فور خروجي من هنا، كما

أنى ليس لديّ وقت لهذا العمل، فأنا على وشك خوض امتحان الدكتوراه في الفنون بجامعة بكين.

سأله الشرطي:

- رائع، تخوض امتحانات الدكتوراه؟

أجابه "دون هوانج":

- نعم، امتحان الدكتوراه، وبالفعل لم أرى ذلك التليفون؛ بل حتى لا أعرف كيف يبدو شكله.

قال الشرطي:

- فمن سرقه إذن، عفريت؟

شعر "دون هوانج" بالارتياح ورد قائلاً:

- ومن يعرف، فالثلاثة الآخرون يقولون ذلك أيضاً.

ضحك الشرطي، ثم وضع محضر الاستجواب أمامه وطلب منه أن يقرأه ويُوَقِّع عليه، بعدما انتهى "دون هوانج" من التوقيع على المحضر قال له الشرطي محذراً:

- عليك الحذر بشأن بيع الأسطوانات المقلدة، فالشرطة تسعى خلف من يقومون بتلك الأعمال.

حققت الشرطة معهم وتم تدوين محاضر بالواقعة ولم يظهر أي أثر لذلك التليفون المسروق. وبالرغم من إلحاح طالب الدكتوراه النحيل أن لا يغادر أحدهم المكان إلا أن الشرطي رفض ذلك، وقال له إن الشرطة ستعاود الذهاب إلى سكنهم صبيحة الغد للتفتيش مرةً ثانية، وغير مسموح لأحد منهم أن يغادر السكن حتى حضور الشرطة.

خرجوا معاً وللمرة الأولى كانوا يسيرون سوياً يتجادلون في أمر التليفون المسروق والمشاكل التي سوف يواجهونها جراء هذا الموضوع تارة، وفي موضوع السرقات المتكررة في بكين تارة أخرى. ودار بهم الحديث حول تكاليف المكالمات المرتفعة وغير ذلك من الموضوعات الخاصة بالتليفونات المحمولة. بعد عودتهم إلى غرفتهم، أخذ كل منهم ينظر إلى الترابيزة الفارغة متخيلاً مشهد سرقة التليفون. صاح طالب الدكتوراه النحيل بلهجة تملؤها الحسرة: "فينك يا تليفوني؟!". لم يواسيه أحد منهم؛ وإنما انصرفوا للاغتسال والاستعداد للنوم.

استيقظ "دون هوانج" فجأة في الخامسة فجراً. كانت هذه هي المرة الأولى التي يستيقظ فيها في هذا التوقيت، وكانت أصوات الشخير تتعالى من طالب الماجستير السمين وطالب الدكتوراه النحيل، بينما كان الثالث يصدر أصواتاً من فمه ناتجة عن اصطكاك أسنانه ببعضها. كانت أنوار الممر الخارجي تضيء الغرفة بشعاع خافت. نظر "دون هوانج" إلى حقيبة الأسطوانات الموضوعة على الترابيزة، فأدرك أن هناك سبباً لاستيقاظه في هذا الوقت. لبس ملابسه بهدوء ونزل من السرير بحذر، وجمع متعلقاته الصغيرة داخل الحقيبة وهم بالخروج. حينما هَمَّ بإغلاق الباب شَعَرَ أن خروجه بهذه الطريقة يجعل الشكوك تحوم حوله، ولذلك قام بوضع ورقة صغيرة أعلى مقبض الباب كتب عليها:

- ليذهب سارق التليفون إلى الجحيم، ولتكن حياته كلها تعاسة.

تبقى له يومان حتى تنتهي مدة الإيجار، ولكنه لم يفكر في هذا الأمر

كثيراً، فالمبلغ المتبقي له ليس سوى أربعين يواناً، والأفضل له أن يتخلى عن هذا المبلغ بدلاً من أن تأتي الشرطة في الصباح وتأخذ منه حقيبة الأسطوانات بالكامل. فلو حدث ذلك سيعود فقيراً معدماً كما كان الحال حين خرج لتوه من السجن.

بحلول الصباح كان هو أول من وصل إلى المنطقة التي يوجد بها إعلانات شقق الإيجار. عندما حلت الساعة السابعة والنصف صباحاً أخذ يجري اتصالاته بخمس من أصحاب الشقق كان قد جمع أرقام تليفوناتهم من قائمة الإعلانات. أولهم لم يرد على التليفون، بينما أخبره الثاني أن الشقة المُعْلَن عنها تم تأجيرها بالفعل. وطلب منه اثنان آخران أن يعاود الاتصال بهما في المساء، أما الاتصال الخامس فقد كان مع سيدة كبيرة في السن وبدا من كلامها أنها لم تستيقظ من نومها بعد، كان لديها غرفة مفردة في منطقة "دو شيو يوان" إيجارها الشهري أربعمائة يوان إضافة إلى خمسين يوان للماء والكهرباء، ليصبح الإجمالي أربعمائة وخمسون يواناً. كانت هذه الغرفة هي الأرخص من بين جميع الغرف المعلن عنها في منطقة الإعلانات بالكامل، وهو ما جعل "دون هوانج" أكثر اهتماماً بها.

لم تكن صاحبة السكن عجوزاً كما تَخَيَّل، فلم تكن قد بلغت الستين، ولكنها كانت مهتمة بمظهرها. قالت له إنها تقاعدت لتوها من العمل، حيث كانت سكرتيرة للحزب عن إحدى الهيئات الحكومية، بدا كلامها منطقياً بالنسبة لـ"دون هوانج". ولكن طريقتها في الكلام جعلته يشعر بالاستياء، والأكثر من ذلك هو تلك الغرفة، فلم تكن غرفة بالمعنى الذي

كان يتخيله. كانت عبارة عن غرفة مؤقتة داخل فناء البيت مبنية بالطوب وسقفها عبارة عن مجموعة من الألواح الخشبية مغطاة بطبقة من القرميد القديم حتى لا تتسلل مياه الأمطار إلى داخلها. قال "دون هوانج" في نفسه، "يا له من إعجاز في تاريخ البناء أن يُطلق على مثل هذا المكان مصطلح غرفة". في الداخل كان هناك سرير وترابيزة وكرسي ورف للكتب. لم تكن تتسع لأكثر من ذلك.

سألها "دون هوانج":

- هل يمكنك تخفيض المبلغ قليلاً؟

- لن أُخفض من المبلغ يواناً واحداً، ألا ترى أنها غرفة فردية، ينعم ساكنها بالهدوء والخصوصية؟ لو لم تكن طالباً في جامعة بكين ما كنت لأؤجرها لك.

أخذ "دون هوانج" يتجول في أرجاء الغرفة ويتحسس بيده على محتوياتها وهو يقول: "غرفة فردية، غرفة فردية". فجأة شَعَرَ بالقناعة أن يكون له غرفة من أربعة جدران تخصه وحده، يمكنه أن يشتري جهاز تليفزيون في المستقبل ويشاهد الأفلام التي يحبها. شيء رائع أن يكون له مكان في مدينة بكين يأوي إليه كل ليلة، ويحتمي فيه من الأمطار والعواصف.

أراد "دون هوانج" أن يستفزها بعض الشيء، فقال لها:

- أوكي، أنا موافق، ولكن لي شرط وحيد، وهو أن أدفع الإيجار كل شهر على حدة.

حَكَّت العجوز ذقنها بيدها في حركة أشبه بحركات أصحاب المناصب وقالت:

- أوكي، أنا موافقة، ولكن عليك أن تدفع إيجار شهر كتأمين، وإيجار شهر آخر كمقدم.

يعرف "دون هوانج" قواعد إيجار السكن جيداً؛ فجميع أصحاب الشقق يتعاملون بهذه الطريقة خوفاً من أن يُغَادِر المستأجرون المكان قبل انتهاء مدة الإيجار حاملين معهم كل ما يمكن بيعه. فَكَّرَ "دون هوانج" في نفسه قائلاً:

- هل تخشى هذه العجوز من سرقة هذا الأثاث البالي الذي ربما لو أعطاه لأحدهم مجاناً لرفض!

لم يكن يريد أن يطيل الحديث معها أكثر من ذلك، ومن ثم دفع لها إيجار الشهرين، وكان هذا المبلغ تقريباً هو كل ما جمعه خلال الفترة الماضية. قام بترتيب المكان بسرعة، واستلقى على السرير، لكنه شَعَرَ بالجوع. قال لنفسه، "عليّ أن أذهب لتناول بعض الطعام ثم أسعى لبيع الأسطوانات وجني المال".



9



شَعَرَ "دون هوانج" بالاستقرار والطمأنينة، فقد أصبح لديه الآن سكناً خاصاً به، ويمكنه من الآن البدء في التخطيط لحياته المستقبلية. فبخلاف خطط التوسع في عمله اليومي المتمثل في بيع الأسطوانات، كان "دون هوانج" يُخطط لزيارة "باو دينج"، ولكن عليه قبلها أن يجد "تشي باو"، فهو لا يريد أن يُخَيِّب ظن "باو دينج".

المشكلة الآن هي أين يذهب للبحث عنها؟ هو لا يعرف أي شيء عنها سوى أنه رآها مرة واحدة من الخلف، وأن اسمها "تشي باو"، وأنها كانت تمارس مهنة تزوير الأوراق؛ بل إنه لا يعرف حتى ما هو لقب عائلتها. سيكون من حُسن حظه لو كانت لا تزال في بكين وتعمل في مهنتها القديمة، وإلا سيكون كمن يبحث عن إبرة في كومة من القش. ألقى باللوم على "باو دينج" لأنه لم يخبره قبلها بوقتٍ كافٍ. لقد انتظر حتى قبضت عليهما الشرطة ليخبره عن "تشي باو". كان ينوي أن يستمر في البحث

عنها بينما يبيع الأسطوانات، وأن يذهب إلى أماكن كثيرة مختلفة قدر المستطاع؛ وخاصةً الأماكن التي تكثر فيها تجمعات مزوري الأوراق، ويستطلع أخبارها كلما سنحت له الفرصة. بدأ رحلة البحث عنها، وأخذ يصوب أنظاره تجاه الفتيات اليافعات؛ بعبارة أدق صار يتفحص مؤخرات الفتيات، فقد كان يعتقد أنه بإمكانه التعرف إلى مؤخرة "تشي باو" من بين المؤخرات الكثيرة التي يحدق فيها يومياً.

في ذلك اليوم شاهد عدداً لا يُحصى من المؤخرات؛ الكبيرة منها والصغيرة، النحيلة والممتلئة، المستديرة والعريضة. شاهد كل الأنواع بلا استثناء حتى فقدت عيناه القدرة على التمييز بين المؤخرات؛ فبمجرد أن يُغلق عينيه كان كل ما يراه أمامه هو بقعتين مستديرتين تتحركان أمام عينيه. وكانت معظم هذه المؤخرات من النوع غير المفضل بالنسبة له. فجأة اكتشف أن هذه الطريقة غير مجدية، فقد بات من الصعب عليه تمييز هذه المؤخرات كل منها على حده. فالمؤخرات القبيحة لها مواطن القبح الخاصة بها، أما المؤخرات الجميلة فقد بدت متشابهة ومن الصعب التفرقة بينها. سأل العديد ممن يزورون الأوراق في عدة مناطق مختلفة: "هل تعرف فتاة اسمها "تشي باو"؟"، كانت النتيجة هي أن هز ثلثهم رأسه بالنفي، وثلثهم يجيبه بسؤال آخر: "هل تريد عمل أوراق مزورة؟ نقوم بتزوير كافة الأوراق"، وثلثهم الآخر ينظر إليه باستهجان وسخرية ثم ينعتونه بالجنون. عندما يفكر "دون هوانج" في الموضوع، يشعر هو الآخر أن ما يفعله مثير للسخرية، ولكنه كان مُصِرَّاً على الاستمرار في السؤال، تماماً كإحدى قصص الأطفال التي تحكي عن شاب يطوف البلدان بحثاً عن فتاة.

المشكلة الآن أنه إذا لم يستمر في البحث والسؤال عنها فلن يعثر عليها أبداً. وبالرغم من أنه لا جدوى من السؤال إلا أن عليه أن يستمر في ذلك. بدأ يفقد الأمل في أن يعثر عليها بهذه الطريقة، فما أكثر من يعملون بمهنة تزوير الأوراق في هذه المدينة. لو تم جمعهم معاً سيصل عددهم لعشرات الآلاف. وحتى يُهَوِّن على نفسه مشقة البحث عن "تشي باو"، جعل من هذا الموضوع جزءاً من تجارة الأسطوانات الخاصة به، ففي بعض الأحيان عندما يشتري أحدهم منه بعض الأسطوانات يسأله "دون هوانج" قبل أن يغادر: – هل تعرف فتاة اسمها "تشي باو"؟

عندما يسمع الزبون مثل هذا السؤال ينظر إليه مستغرباً ويهم بالانصراف بينما ينخرط "دون هوانج" في الضحك. كانت تجارته على ما يرام، وفي الأيام التي يكون الطقس فيها جيداً يكون ربحه أكثر، وكلما جني مالاً قام بادخاره، وجلس يحسب كم تبقى له من المال لكي يتمكن من شراء التليفزيون وجهاز مُشَغِّل الأسطوانات. لم يعد يتصل بـ"شياو رونج" كلما كان في حاجة لشراء المزيد من الأسطوانات؛ بل كان يذهب مباشرةً إلى متجر "العالم لبيع الأسطوانات" الذي يمتلكه "كوانج شان". لم يكن يريد أن يتسبب لها في المزيد من المشاكل، فالطريقة اللائقة لوصف استمرار العلاقة بينهما هي أنّها حبٌ مُحَرَمُ، أما الطريقة غير اللائقة فهي ممارسة الرذيلة. لا يهتم "دون هوانج" لكون ذلك ممارسة للرذيلة أم لا. إنه رجل أعزب، لو ضُبِطَ معها سوف يوسعونه ضرباً وينتهي الأمر. هو فقط قلق بشأنها. هو يعرف أنها تريد أن تُنهي هذه العلاقة، فهي لا تريد أن تعيش حياتها

متقلبة بين رجلين مختلفين. ومن الأفضل أن تنقطع العلاقة بينهما. كان قد اتصل بها في أحد الأيام، عنفته بحدة وسألته لماذا لا يذهب لزيارتها ولكنها سرعان ما هدأت من حدة نبرتها عندما أجابها بأنه قد خرج حالاً من متجر "كوانج شان"، وأنه لا يعرف ما الوقت المناسب لكي يذهب لزيارتها. صمتت "شياو رونج" لبعض الوقت ولم تخبره عن الوقت المناسب لكي يذهب إليها، حينها قرر "دون هوانج" أن يقطع علاقته بها؛ فالتألم لبعض الوقت أفضل من التألم طول الوقت، وعليه كرجل أن يتحمل بُعده عنها، ومن هنا لم يعودا يلتقيان بل حتى أصبحا نادراً ما يتحدثان في التليفون.

يقع متجر "العالم" للأسطوانات الذي يمتلكه "كوانج شان" في حارة بمنطقة "ساتزي ينج"، وجدرانه الداخلية مغطاة بطبقة من بوسترات الأفلام المعروضة به، مكتوب على الجانب الأيسر من المدخل اسم المتجر، وعلى الجانب الأيمن عبارة: "منتجاتنا أصلية بالكامل". وبالفعل كانت جميع الأسطوانات المعروضة على الأرفف أصلية، لكنها كانت للعرض فحسب، أما الأسطوانات المقلدة فكانت موجودة خلف باب خفي بالداخل حيث تتم هناك أعمال البيع والشراء. كانت المرة الأولى التي يذهب فيها "دون هوانج" إلى هناك؛ حيث عَرَّفه "كوانج شان" على السيد "تشو" شريكه في المتجر واثنين من العاملين قائلاً لهم إنه أخو زوجته، وعليهم أن يعطوه ما يريد بأفضل الأسعار. العاملان هما شاب وفتاة في العشرينات، كانا على دراية تامة بجميع الأفلام الجيدة، ويمكن لهما أن يشرحا كل فيلم

على حده، كما يحفظان أسماء المخرجين والممثلين، بل حتى النقد والمضمون ووقت التصوير والعرض وكل ما يتعلق بهذه الأمور. عَبَّرَ "دون هوانج" عن إعجابه الشديد وانبهاره بهما، ولكنهما أخبراه أنه لا داعي للانبهار، كل هذه المعلومات تأتي فقط من خلال المشاهدة الكثيرة.

في اليوم الثالث عشر من إقامته بغرفته الجديدة، اشترى "دون هوانج" تليفزيون ومُشَغِّل أسطوانات. كان جهاز مُشَغِّل الأسطوانات جديداً، أما التليفزيون فقد اشتراه مُستعملاً بحالةٍ جيدة من سوق البضائع القديمة بمائتي يوان. وفي الليلة الأولى من شرائهما، تناول كيسين من المكرونة سريعة التحضير وشاهد أربعة أفلام مرة واحدة. في النصف الأخير من تلك الليلة هبت عاصفة رملية اخترقت القرميد الذي يغطى سقف الغرفة وتسلل صفيرها وغبارها إلى الداخل. كان "دون هوانج" ينوي الذهاب إلى الحمّام الموجود على ناصية الحارة، ولكن بسبب هذه العاصفة توقف أمام شجرة عند مدخل غرفته وقضى حاجته ثم هرول إلى الداخل قائلاً في نفسه، "هذه العاصفة اللعينة تأبي ألا تأتي سوى في أوقات متأخرة من الليل".

في صبيحة اليوم التالي، استيقظ على صوت أحدهم يصيح في الخارج: "التراب والغبار في كل مكان". لم يتمكن من معاودة النوم ثانيةً. نهض من فراشه وذهب ليستطلع ما يجري. كانت صاحبة السكن تقف هناك، وعندما رأته يخرج من غرفته قالت له:

– أيها الشاب، انظر تحت قدميك".

نظر "دون هوانج" فإذا بالأرض مغطاة بطبقة من الغبار الدقيق. رفع قدمه من على الأرض فانتفضت سحابة من الغبار للأعلى. رفع قدمه الأخرى وانتفضت معها سحابة ثانية. كَرَّرَ تلك الحركة مرات عدة، مما تسبب في امتلاء الأجواء بالغبار، بينما كانت صاحبة السكن وجيرانها يتراجعون للخلف يطالبنه بالتوقف.

توقف وسأل:

- من أين أتى كل هذا الغبار؟

نظر حوله فوجد كل شيء مُغطىً بطبقة صفراء من الغبار الدقيق. تَذَكَّر العاصفة الرملية التي هبَّت بالأمس، ولكنها الآن كانت قد توقفت، وارتفعت الشمس في كبد السماء. بدت وكأنها قد اصطبغت بلون أبيض خلف سماء صفراء.

حينها سمع صاحبة السكن تصيح بدهشة:

- لقد أمطرت السماء تراباً.. أمطرت السماء تراباً.

أُصيب الجميع بالدهشة حتى الجيران؛ صغيرهم وكبيرهم، فمنهم من تقدم به السن ولم يسبق أن شاهد السماء تُمطر تراباً من قبل. كذلك كان الحال بالنسبة لـ"دون هوانج" أيضاً. ركل بقدمه إحدى الأشجار الصغيرة الموجودة أمام باب غرفته فتساقطت موجة من التراب الأصفر على الأرض. صاح هو الآخر:

- يا إلهي، لقد أمطرت السماء تراباً بالفعل.

دخل إلى غرفته ليغتسل ثم لملم حقيبته وخرج ليبيع أسطواناته. ظل

يتلفت يميناً ويساراً طول الطريق. كان كل شيء مُغَطى بالتراب الأصفر، وهناك الكثير من الأطفال يلهون وسط التراب، وعمال النظافة قد جمعوا أكواماً كبيرة من التراب الأصفر من الشوارع. كل شيء بدا غريباً، نعم هناك شئ ما يحدث، فالأمور على غير ما يرام، وهذا ليس عام سعده، وإلا ما كان ليدخل السجن حينما كان عمله في تزوير الأوراق قد بدأ يزدهر.

ما إن وقف أعلى كوبري المشاة حتى تبدلت مشاعره. وقف ينظر من أعلى الكوبري على تلك المباني السكنية القديمة وقد بدت مكسوة باللون الأصفر الترابي، تماماً كما يكتسي العالم بالثلج الأبيض في فصل الشتاء. بدت المباني والطرقات وكأنها أطلال مهجورة، لا دليل على وجود أثر للحياة فيها. لم يكن ليصدق أن هناك شيء آخر بخلاف الثلج يمكنه أن يصبغ العالم بلون واحد، بل ويجعله في حالة تامة من السكون. نظر إلى وجوه تلك القلة من المارة التي كانت خالية من أي تعبيرات، وفجأة انتابته موجة من الغضب كمن يريد أن يحطم كل ما تقع عليه عينه. صرخ قائلاً: "شياو - رونج".

بالرغم من أنه لا أحد يعرف من هي "شياو رونج"، إلا أن جميع المارة التفتوا ليعرفوا ماذا ألم بهذا الشخص المجنون. التفت إليهم "دون هوانج" مبتسماً وهو يتظاهر بأن شيئاً لم يحدث. التفت بوجهه. شاهد سيارة مكسوة بالتراب الأصفر متوقفة على جانب الطريق وقد كتب أحدهم بيده على طبقة التراب التي غطت السيارة عبارة: "تباً لك أيتها العاصفة الترابية".

وحتى يكسر حالة الملل التي يعيشها، نزل من على الكوبري وسار باتجاه السيارة وكتب أسفل الجملة السابقة عبارة: "نعم.. هذا صحيح". بعدما

انتهى من كتابة هذه العبارة وقف بجانب السيارة ينظر إلى خط يده فوجده لا بأس به، شَعَرَ بأنه استعاد ذكرياته السابقة وقت أن كان يتعلم فنون الخط. فحين كان في المرحلة الإعدادية، شاعت موضة تعلم فنون الخط. كان كل من يستطيع أن يمسك الفرشاة يتدرب على فنون الخط، وكان هو واحداً من هؤلاء. كان يكتب بأغصان الشجر على الكوبري الطيني للنهر الموجود أمام المدرسة، وما إن تهب موجة من المياه حتى تطمس ما كتبه فيعاود الكتابة مرةً أخرى. بعد ذلك كان يجلس تحت أشعة الشمس مستخدماً الفرشاة والماء للكتابة على الطين، وما إن ينتهي من كتابة جملة حتى تكون سابقتها قد جفت ومن ثم يعاود الكرة مرةً تلو الأخرى. حينها كان هناك الكثيرين مثله يرقدون على الطين يمارسون الكتابة في مشهد يشد الانتباه.

لم يكتف بكتابة هذه الجملة فحسب، وحتى يشبع رغبته في الكتابة كتب تحتها: "لست أنا من كتب هذه العبارات".

استمر في طريقه بعدما انتهى من الكتابة. شاهد سيارة "بي إم دبليو" متوقفة على جانب الطريق؛ فكتب عليها: "اللعنة على "بي إم دبليو"". وهكذا كلما مر بسيارة من طراز مُعَيَّن؛ كتب عليها اللعنة على هذا الطراز. لم يكد ينتهي من كتابة كلمة "اللعنة" على السيارة الخامسة حتى استرعت انتباهه بعض الملصقات الإعلانية الصغيرة مكتوب عليها: "إذا كنت تريد عمل أوراق مزورة، اتصل بنا على الرقم 130xxxxxx". فَكَّرَ في نفسه، "لماذا لا يضعون إعلانات لبائعي الأسطوانات؟ ومن ثم أمسك بقلمه وشطب على بعضها ثم كتب: نبيع أسطوانات جميع الأفلام، للاتصال: 133xxxxxx".

شَعَرَ بالحماسة الشديدة بسبب هذه الفكرة الطارئة، ثم أخذ يكتب طوال الطريق. كلما صادفته سيارة متوقفة كتب عليها. بعض السيارات لا يوجد عليها تراب في المقدمة؛ لذلك يكتب على مؤخرتها، والعكس، ظل يكتب حتى نملت أصابعه وشعر بالألم في ذراعه. لم يكن يهتم إن كان هناك من يشاهده أم لا، ما يهمه فقط هو الكتابة. استمر على هذه الحال حتى الثانية عصراً. ربما لو أحصى عدد السيارات التي كتب عليها لتجاوز العدد الثلاثمائة. بعدها ذهب إلى مطعم صغير وطلب نوعين من الخضار المطهي وزجاجتين من البيرة كمكافأة لنفسه على المجهود الذي بذله اليوم. بينما كان يتناول طعاماً ظل يُمني نفسه بالمكالمات التي ستتوالى عليه، وفَكَّرَ أيضاً أن على البقية من بائعي الأسطوانات أن يشكروه على هذا الابتكار الذي يُعد بمثابة الخطوة الأولى لتوصيل أسطوانات الأفلام للمنازل.

لم يكد ينتهي من تناول طعامه حتى رن جرس تليفونه. أجاب "دون هوانج" بسرعة. سمع الطرف الآخر يقول:

– هل أنت بائع الأسطوانات؟

– نعم يا سيدتي، أي فيلم ترغبين بشرائه؟

صاحت فيه قائلة:

– يا لك من معتوه؟

شَعَرَ "دون هوانج" بأن هناك خطب ما، ولكنه حاول تلطيف الأجواء قائلاً:

– العفو يا سيدتي، ليس عندي هذا الفيلم.

- لا تستخف بي وتتظاهر بالجهل، إياك أن تكتب على سيارتي مرةً أخرى. إن كنت تريد حك أصابعك بشيء ما؛ فاذهب وحكها بالحجارة.

أغلقت التليفون في وجهه.

شَعَرَ "دون هوانج" بالسعادة. تناول كأساً من البيرة وقال في نفسه ضاحكاً: "احك أصابعي في رأس أمك".

كان معتاداً على مثل هذه الأمور عندما كان يعمل في تزوير الأوراق، فمن الطبيعي أن يتصل بك أحدهم ليسبك أو يُعنفك عندما تكتب إعلاناً في مكان يضايقه، أو تلصقه في مكان غير مناسب. ما جعله يشعر بالسعادة هو أن الإعلانات بدأت تُؤتي ثمارها، فكما قد يتصل به بعضهم ليسبه، يتصل به البعض الآخر ليطلب شراء أسطوانات.

عندما هَمَّ بدفع الحساب رن تليفونه ثانيةً. كان صوت شاب يافع، سأله إن كان يبيع أسطوانات الأفلام أم لا، وأنه وجد رقمه مكتوباً على إحدى السيارات. أجابه "دون هوانج" بأنه بالفعل بائع الأسطوانات، وسأله عن الأسطوانات التي يريدها. أجابه الشاب بأن محل عمله يقع بالقرب من كوبري "تشانج هونج"، كما أن هناك بعضاً من زملائه ينوون اختيار بعض الأسطوانات. سأل "دون هوانج" عن العنوان بالتفصيل ثم استقل الأتوبيس في طريقه إلى هناك. وصل إلى هناك في الرابعة والنصف عصراً. صعد إلى الدور الخامس حيث يعمل ذلك الشاب. وضع حقيبة الأسطوانات أمامه قائلاً:

- اختر منها ما تشاء.

التف حوله زملاؤه في المكتب، وبدا كما لو أنهم على دراية بالأفلام؛ حيث دار بينهم حديث سريع عن بعض منها. كان "دون هوانج" على وشك أن يغادر المكان قبل أن يكتشف أن العاملين في هذا المكان يشتغلون بمجال الفنون؛ بل إن المبني كله كذلك، فمنهم من يعمل روائياً أو مؤلفاً أو شاعراً، ومنهم من يعمل في مجال الموسيقى والغناء والرقص والتصوير. كما علم أن هناك بائع أسطوانات آخر كان معتاداً على الحضور لمقابلة ذلك الشاب الذي اتصل به، ولكنه اختفى منذ ثلاثة أشهر. حينها أخبره "دون هوانج" أنه سيتردد عليهم بانتظام بعد ذلك، ويمكنهم أن يتصلوا به إذا كانوا في حاجة إلى أسطوانات بعينها. كانوا راضون إلى حد ما عن جودة الأسطوانات، و"دون هوانج" يثق تماماً في جودة بضاعته. بالبرغم من أنها مقلدة، إلا أن جودتها عالية. باع حينها إحدى وثلاثين أسطوانة، وعندما هَمَّ بالمغادرة سألهم قائلاً:

- هل يمكن أن أعرض بضاعتي على باقي الشركات في المبنى؟

أجابه الشاب:

- نعم يمكنك ذلك، اذهب مباشرةً واطرق الأبواب واعرض بضاعتك. كان بائع الأسطوانات السابق يفعل هذا.

كاد أن يُغمى عليه من فرط السعادة، وكأنه قد عثر على دجاجة تبيض له ذهباً. استمر في التجول داخل المبني المكوَّن من بضع عشر طابقاً. لم يكن قد انتهى من التجول في طابقين منه فقط حتى حان وقت انتهاء العمل. باع أكثر من ثمانين أسطوانة خلال التجول في طابقين فقط، أكثر من ثمانين أسطوانة، صافي ربحهم ثلاثمائة يوان، يا للهول!

خرج من المبنى تغمره السعادة. ابتسم لحارس الأمن ابتسامة بلهاء. سأله الحارس مستغرباً:

– ما الذي يُضحكك؟

أجابه "دون هوانج":

– فقط ألقي عليك التحية، وسوف أعود في الغد، فقد طلبوا مني ذلك.

اشترى الجريدة المسائية. صعد الأوتوبيس وأخذ يتصفحها. دُهش بشدة حين قرأ خبراً يقول إن السماء أمطرت ما يعادل خمسمائة وثلاثين ألف طن من التراب الأصفر على بكين ليلة البارحة. كل ما خطر بباله هو كم عدد المقابر التي يمكن أن تبنيها كل هذه الكمية. طالع أيضاً أن جزءاً من هذه الكمية مصدره بكين نفسها. بكين الآن أشبه بموقع عمل عملاق، والجزء الآخر مصدره من "شينجيانج" ومنجوليا الداخلية والصحراء الكبرى. يا لعظمة وجبروت هذه الرياح التي تجبر حبات الرمال على السفر لآلاف الأميال! كما قرأ خبراً آخر يقول إن العاصفة الرملية اصطدمت بزجاج نافذة إحدى عربات القطار في "شينجيانج" مما تسبب في كسره وهو ما اضطر راكبين إلى الوقوف بجانب النافذة المكسورة ممسكين ببطانية لسد الفجوة الموجودة بالنافذة. لم تكن هذه الأخبار ذات معنى أو قيمة بالنسبة له، ولكن هذه الأخبار منحته شعوراً غريباً بالوحدة والفضول، وكأنه يريد أن يتحدث مع شخصٍ ما، ولكن مع من؟ لا يوجد أحد يتحدث معه الآن بخلاف "تشي باو". ولكن كيف يجدها! تنهد قائلاً:

– "تشي باو" "تشي باو"، أين أنتِ الآن يا "تشي باو"؟

10



ذهب مرةً ثانيةً إلى ذلك المبنى القريب من كوبري "تشانج هونج"، وباع عدداً لا بأس به من الأسطوانات. بعد عودته في المساء كان عليه أن يذهب لشراء أسطوانات جديدة. تردده الدائم على متجر "العالم" لشراء تلك الأسطوانات، أصاب "كوانج شان" بنوعٍ من الدهشة، ما جعله يسأل "دون هوانج" كيف لشخص مثله يبيع الأسطوانات بالواحدة أن يبيع كل هذه الكمية، وكانت إجابة "دون هوانج" هي:

- الكد في العمل، أو كما يقول المثقفون: "التفاني".

بالفعل يُعد "دون هوانج" مُتفانياً في عمله. ففي كل مرة كان يذهب فيها لشراء أسطوانات جديدة، كان يسحب منها بعض العينات ويقوم بتجربتها بمُشَغِّل الأقراص الخاص به ليعرف مدى جودتها قبل أن يبيعها للزبائن. على الأقل يقوم بتجربة أسطوانة من كل فيلم. وبالرغم من أن جميعها مُقَلَّدة، إلا أنه كان يحرص دائماً على اختيار أفضلها حتى لو

كان ثمنها أغلى قليلاً، فالسمعة أهم من ذلك المكسب القليل. كانت كل هذه خبرات قد اكتسبها خلال ممارسته مهنة تزوير الأوراق، فكسب الزبون أهم من كسب المال. وأفضل دعاية للمنتج هي رضاء الزبون. كما أن السرعة في توصيل البضاعة تترك انطباعاً جيداً لدى الزبون. اشترى عدة علب من الورق اللاصق وكتب عليها إعلانات صغيرة خاصة به، وكان يتحين الفرص ليلصقها أمام مداخل المباني، والمصاعد، وأماكن التنزه والتسوق وغيرها. أتت هذه الطريقة ثمارها بسرعة، فدائماً ما كان يتصل به بعض الزبائن يطلبون شراء أسطوانات بعينها. وبالرغم من أن الكميات المطلوبة قليلة للغاية، إلا أنه كان حريصاً على توصيلها لباب الزبون حتى لو كان المطلوب أسطوانة واحدة أو اثنين. ودائماً ما كان يتجول في الأماكن التي يُحَدِّدها له الزبائن لتوصيل البضاعة، لربما صادف بعض المشترين وباع بضعة أسطوانات في الطريق، أو يستمر في محاولات إقناع الزبون بشراء أفلام أخرى قد يرشحها له.

كانت هناك فتاة دائماً ما تتصل به، وفي كل مرة كانت تطلب أسطوانة واحدة أو اثنين على الأكثر من أفلام الرعب والدماء، ولا تصغى أبداً لمحاولاته لكي تشتري منه المزيد. كانت تعيش في منطقة "تشي تشوين لي"، ولكي يذهب إليها كان عليه أن يقطع نصف مسافة منطقة "تشونج قوان تسون". والأكثر تعباً هو أنه لا توجد مواصلات عامة مباشرةً من منطقة "وي شيو يوان" حتى "تشي تشوين لي"، وعليه أن ينزل في منتصف المسافة ويستبدل خط السير، أو أن يسير على قدميه لمسافة

ليست بالقصيرة. في المرة الأولى التي ذهب فيها إلى هناك، استغرقت المسافة حوالي ساعة تقريباً. كانت الفتاة تعيش في الطابق العلوي بأحد المباني في منطقة "تشي تشون لي". جميلة ورشيقة، ولكن نظرتها للآخرين تبدو كنظرة استخفاف وكأنهم مدينون لها بالمال. غالباً تتدلى من فمها سيجارة من ذلك النوع الحريمي الرفيع؛ أحياناً تنفث الدخان بعصبية وأحياناً تعض على عقب السيجارة بأسنانها. ويبدو واضحاً عليها العصبية والضيق. لم تكن تتركه يدخل إلى بيتها، بل كانت تأخذ منه الأسطوانات وتسلمه المال من خلف فتحة الباب الحديدي. ولكن كان بإمكانه مشاهدة مدى فخامة بيتها من الداخل، فخامة أصابته بالذهول. لم يكن قد شاهد مثل هذه الفخامة بعينيه من قبل، ربما شاهدها في بعض الأفلام وحسب، ولكنه لا يفهم كيف لفتاة تعيش في كل هذه الأبهة والفخامة أن تكون عصبية ومكتئبة بهذا الشكل! في إحدى المرات لم يتمالك نفسه من أن يسألها قائلاً:

– لماذا تطلبين دائماً أفلام العنف والرعب؟ لدي أنواع أخرى كالأفلام الرومانسية، والدرامية وأخرى حاصلة على جوائز.

لم يكد ينتهي من كلامه حتى قاطعته الفتاه بعصبيه قائلة:

– من طلب منك أن تتحدث؟ هل تريد أن تبيع أسطواناتك أم تريد أن تتحدث؟

وألقت سيجارتها على السجادة المفروشة على الأرض مما تسبب في إحراق جزء منها وتصاعدت رائحة الدخان.

قال "دون هوانج" مُتلعثماً:

- أنا آسف للغاية، لم أقصد مضايقتك.

واستدار مُغَادِراً المكان وقال لها:

- احترقت السجادة.

ردت عليه بضيق:

- أعرف ذلك.

دخل "دون هوانج" المصعد وأخذ يُحَدِّث نفسه مُغتاظاً:

- ما الداعي لكل هذه الغطرسة؟! هل جمالك يعطيك الحق في أن تعاملي الآخرين بطريقة سيئة!

قَرَّرَ أنه لن يوصل لها أسطوانات بعد الآن، فلا جدوى من بيع أسطوانة أو اثنين كل مرة، فالمكسب يذهب في ثمن تذكرة الأتوبيس، بل وعليه أن يُعَاني من هذه المعاملة السيئة. ولكن بعد ذلك اتصلت به نفس الفتاة تطلب فيلماً جديداً فقام بتوصيله لها على الفور. التمس لنفسه العذر قائلاً:

- فتاة شابة عليّ أن أكون رجلاً وإلا أعاملها بمثل معاملتها.

ربما كان هناك سبب آخر وهو فضوله تجاه تلك الفتاة الغامضة، كما أنه يساوره بعض القلق تجاهها، فلم يكن قد رأي أحداً يسكن معها في بيتها الفخم هذا. على أي حال كانت أمورها بالنسبة له غير طبيعية، وهو يريد أن يُوجهها لمشاهدة أفلام أخرى غير أفلام الرعب والعنف، لربما تساعدها في الخروج من تلك الحالة. كان حريصاً في المرة التالية، فلم يرشح لها أفلاماً أخرى، بل تعمد أن يكون الحديث عاماً وغير مباشر، فقال لها:

- إن حيّكم السكني هذا يشبه أحد الأحياء السكنية التي شاهدتها في أحد الأفلام، لا أزال أتذكر هذا الفيلم جيداً. بكيتُ من شدة تأثري حين كنت أشاهده. أعتقد لو أرادت فتاة ما مشاهدته فعليها أن تُجهز عبوة من المناديل حتى تكفيها لتجفيف دموعها. كما أن هناك مشهداً لسائق سيارة أجرة اصطدم بسيارة الشرطة من الخلف. كان مشهداً مثيراً بحق. لا أعرف إن كنتِ شاهدتِ هذا الفيلم من قبل أم لا، جميع أحداثه مؤثرة مثلها مثل القصص الدينية.

كان قد طالع تلك الجملة الأخيرة في إحدى كتب النقد السينمائي التي طالعها.

في بداية حديثه كانت الفتاة لا تزال تنظر إليه بسخرية كمن يشاهد بهلواناً، ولكن في النهاية فهمت ما يرنو إليه، بعدها حَسَّنَت من معاملتها له، فلم تكن تنظر إليه باستخفاف وتحدثه والسيجارة تتدلى من شفتيها. إلا أنها لم تكن تبادره بالحديث في أمر الأفلام. انتابه شعور بالنجاح، وعَقَدَ العزم على أن يستمر على هذا المنوال، فقد كان على يقين أنها ستقبل ـ يوماً ما ـ مشاهدة أنواع أخرى من الأفلام بخلاف أفلام العنف والدماء.

ولأنها كانت تطلب منه أفلاماً جديدة كل يوم أو يومين، فقد فكَّر في شراء دراجة، فحياته الآن في حاجة إلى وسيلة تنقل أسرع. في الصباح قام بلصق عدة إعلانات في منطقة الإعلانات بجوار الجامعة يطلب شراء دراجة مستعملة. وبحلول الظهيرة اتصل به أحدهم يطلب منه أن يتقابلا ليشاهد الدراجة ويتحدثا في التفاصيل، لم يكن حينها بعيداً عن مكان الإعلان، ومن ثم عاد على الفور إلى هناك.

كان شاباً في العقد الثالث من عمره، يرتدي بدلة وكرافتة، بدا مهندماً وأنيقاً. اصطحب معه "دون هوانج"، وتجولا أمام المكتبة وأمام مباني الدراسة وسكن الطلبة؛ حيث كانت صفوف الدراجات متراصة خلف بعضها. طلب من "دون هوانج" أن يختار النوع الذي يفضله. أُعْجِبَ "دون هوانج" بدراجة جبلية نصف جديدة، ولكنه خشي ألا يقدر على دفع ثمنها، ولكن الشاب ذو البدلة أخبره بأن لا يقلق، فالأسعار قابلة للنقاش.

قال له "دون هوانج":

- من الأفضل أن أنتقي واحدة أقل في الجودة والسعر.

- أوكي، اتفقنا، قابلني الساعة الخامسة والنصف عند البوابة الغربية.

وصل "دون هوانج" في الموعد حيث كان ذو البدلة ينتظره هناك مرتدياً نظارة شمسية ومستقلاً دراجة بدت مألوفة بالنسبة لـ"دون هوانج". نزل ذو البدلة من على الدراجة قائلاً:

- هي لك، أين المال؟

- هذه الدراجة تشبه كثير تلك التي شاهدناها سوياً اليوم.

قال ذو البدلة ضاحكاً:

- تشبه؟ إنها هي يا صاحبي، القفل فقط هو المختلف، لقد اشتريت لها واحداً جديداً. نظر "دون هوانج" إلى القفل فوجده جديداً بالفعل، فقد كانت مقيدة بقفلين مزودين بسلسلة حديدية، أما الآن فهناك قفل واحد من ذلك النوع المعتاد فقط.

- أعتقد أن ذلك ليس من الصواب، فماذا لو اكتشف أحدهم ما فعلناه؟

- هل تمزح معي؟ أتعرف كم عدد هذا النوع من الدراجات في الصين؟

كيف لأحدهم أن يكتشفها؟

ولكي يطمئنه أكثر أخرج من جيبه سكيناً حاداً وأخذ يحك طلاء الدراجة من أماكن مختلفة، قائلاً له:

- ماذا الآن، هل اطمئن قلبك؟

كان القلق لا يزال يساور "دون هوانج"، حيث قال له ذو البدلة مغتاظاً:

- ماذا بك يا رجل؟ هل يحتاج منك شراء دراجة لكل هذا التفكير، ما الحال لو كنت تختار زوجة إذن؟ ان كنت لا تريدها سوف أتخلص منها.

- الحقيقة أنا أريدها ولكن أخاف أن تحدث مشكلة.

- ما الذي تظن أنه سيحدث؟ حسناً سأعطيها لك بثمانين يواناً بعدما كنت أنوي بيعها بمائة يوان، ما رأيك؟

وافق "دون هوانج" وأعطاه المبلغ وركَّب الدراجة مغادراً المكان يغمره شعور بالغبطة والسرور، فقد أصبحت لديه الآن وسيلة يتنقل بها. قبل أن يغادر، أوصاه ذو البدلة أن يشتري قفلاً آخر أكثر أماناً، فهذا النوع من الدراجات أكثر عرضة للسرقة من غيره، ثم أعطاه الكارت الخاص به قائلاً:

- إذا كان لديك أصدقاء يريدون شراء دراجات يمكنهم الاتصال بي في أي وقت.

نظر "دون هوانج" إلى الكارت فوجد مكتوباً عليه: "السيد "تشانج" مدير معرض بيع الدراجات المستعملة – تليفون رقم 130xxxxxx".

شَعَرَ "دون هوانج" أن هذا الكارت من النوع الذي يستحق الاقتناء. يا

إلهي، لقد أصبح العالم مجنوناً، وهذا هو الدليل. كان معجباً للغاية بتلك الدراجة، وكان يشعر بالحماسة كلما تجاوز سيارة تسير أمامه. ركب في حياته دراجات كثيرة من مختلف الماركات؛ مثل FOREVER، وPHOENIX، وFLYING PIGEON، وماركة GOLDEN DEER التي تُصنع في "شاندونج" وغيرها، ولكنه لم يركب دراجة من هذا النوع ماركة GIANT من قبل. ركب الدراجة متجهاً إلى منطقة "تشي تشوين لي" ليقوم بتوصيل أسطوانة إلى الفتاة غريبة الأطوار. وكلما أسرع في السير، شَعَرَ بأن عليه أن يقنع هذه الفتاة بمشاهدة أفلام أخرى غير أفلام الرعب والعنف. بل إنه فكر لماذا لا تشاهد هذه الفتاة أفلاماً خليعة او إباحية، على الأقل أفضل من أفلام القتل والضرب؟

لم تتقبل الفتاة نصائحه، ولكن هناك تغيراً ملحوظاً طرأ عليها، فلم تكن تخرج تأخذ منه الأسطوانات بملابس النوم، كما بدا شعرها ممشطاً. سألها "دون هوانج":

- هل سبق لك أن ركبتِ دراجة من نوع GIANT؟ إنها أفضل أنواع الدراجات. اشتريت واحدة اليوم، أرجو ألا تسخري من كلامي. إنها فعلاً رائعة، وينتابني شعور رائع عندما أركبها، ما رأيك أن تجربيها، بالرغم من أنها مستعملة إلا أن حالتها جيدة، أرجو ألا يضايقك كونها غير جديدة.

كانت على وشك أن تبتسم عندما سمعت هذه الجملة الأخيرة، ولكنها تمالكت نفسها وتظاهرت بعدم الاهتمام قائلة:

- شكراً، مع السلامة.

وعندما همَّت بإغلاق الباب. قال "دون هوانج" على عجل:
- هل شاهدت فيلم "سارق الدراجة" أم لا؟ إنه فيلم رائع!
وعندما انتهى من سؤاله كان الباب قد أُغلق.

خرج من المبنى الذي تسكن به؛ فلم يجد دراجته. يتذكر جيداً أنه وضعها أسفل المبنى، كما كانت هناك دراجتان قديمتان في المكان نفسه. الدراجتان القديمتان لا تزالان في مكانهما أما دراجته فلا أثر لها. بحث "دون هوانج" في المكان كله ولكن بلا جدوى. أدرك أنها قد سُرقت، حينها تذكر بائع الدراجات ذو البدلة. أخرج الكارت الذي أعطاه له واتصل بالرقم الموجود عليه.

رد عليه ذو البدلة قائلاً:
- مرحباً يا صديقي، يبدو أن لديك صديق يريد شراء دراجة.
- أصدقائي جميعهم لديهم سيارات خاصة، لقد سُرقت دراجتي!
- هل تقصد بذلك أنك تريد أن تشتري واحدة أخرى؟
- تباً لك، أقول لك إن دارجتي سُرقت أيها اللعين.
- سُرقت دراجتك، لتبلغ الشرطة إذن، ما الفائدة في أن تخبرني بذلك؟
- لأنك الوحيد الذي يعرف بأمر هذه الدراجة.
- يبدو أنك جُننت، لو كنت أبيع الدراجات التي أعرفها لكنت مشرداً في الشارع منذ زمن بعيد؟
- اخبرني إذن كيف سُرقت دراجتي.
قال ذو البدلة مغتاظاً:
- عليك أن تسأل السارق، أو تسأل القفل، هل أخبرك أحدهم أني أبيع

الدراجات المسروقة بالضمان؟ يا لك من أخرق.

صمت "دون هوانج" لبرهة، تذكر أنه نسي أن يشتري قفلاً جديداً لدراجته، فقد كان يشعر أن الدراجة دائماً بجواره في النهار، وفي الليل يصطحبها إلى مسكنه، وبالتالي فلن تتعرض للسرقة، ولا داعي لأن يشتري قفلاً جديداً.

استمر ذو البدلة في الحديث قائلاً:

- أنت من تسببت في سرقتها، عز عليك أن تنفق بضعة يوانات لشراء قفل جديد، ألم تلحظ كم كان رديئاً ذلك القفل القديم، يسهل على طفل صغير أن يكسره، ناهيك عن سارق محترف. أنت تستحق ما جرى لك، وأنا غير متعاطف معك بالمرة، ما رأيك أن أجلب لك واحدة أخرى بنصف سعر الأولى؟

- لتذهب إلى الجحيم.

ثم أغلق تليفونه والحسرة تكسو ملامحه. كلما فكر في أمر الدراجة ازداد حنقه، ثم قرر أنه لن يشتري دراجة أخرى، فالناس قديماً كانوا يعيشون حياة طبيعية قبل اختراع الدراجات. فكر أن عليه أن يركض وأن يعتمد على قدميه، على الأقل لن يسرقهما أحد منه.

في المرة التالية ركض إلى هناك بالفعل، حينها اكتشف أن الركض ليس أقل سرعة من ركوب الدراجة. انطلق ماراً بالبوابة الجنوبية لجامعة بكين، ثم مروراً بشارع "تشونج قوان تسون"، وصولاً إلى كوبري "تشونج قوان تسون" الأول ثم اتجاه المحور الرابع وطريق "كه شيويه" الجنوبي

وصولاً إلى منطقة "تشي تشون لي". كان يركض كالمجنون، غير مبالٍ بإشارات المرور، وكاد أن يتسبب في بعض الحوادث. كان الكثيرون من المارة يحدقون النظر إليه، ففي منطقة مزدحمة مثل "تشونج قوان تسون" من الصعب أن تجد شخصاً يركض بهذا الجنون.

وصل إلى بيت الفتاة غريبة الأطوار، ثم حاول أن يُهديء من أنفاسه المتسارعة، وضغط على جرس الباب. ثم وضع أسطوانتي فيلمي KILL BILL وMANSIONS BRICK أسفل باب الشقة الحديدي.

خرجت الفتاة مُرتدية تنورة، تضع شالاً أحمر على كتفيها، وقالت له:

- شكراً لك، هل معك ذلك الفيلم الذي حدثتني عنه المرة السابقة؟

- هل تقصدين فيلم "سارق الدراجة"؟

أجابته بتحفظ:

- نعم ذلك الفيلم.

- لا يوجد فيلم "سارق الدراجة"، بل يوجد الشخص الذي سرقت منه الدراجة.

- هل هذا فيلم جيد أيضاً؟

- أمزح معكي، فقط أتحدث عن نفسي، وبخصوص فيلم "سارق الدراجة" سأحضره لك المرة المقبلة.

- هل سُرقت دراجتك؟

- نعم، سُرقت بالأمس أسفل هذا المبنى.

- ماركة GIANT؟

- نعم.

- كم ثمنها، سأدفعه لك.

- ثمانين.

ضحكت الفتاة أخيراً وقالت:

- دراجة ماركة GIANT بثمانين يواناً؟

أخرجت من حافظة نقودها خمس ورقات من فئة المائة يوان وأعطتها له قائلة:

- لا تحاول خداعي، ليس هناك دراجة من هذا النوع بذلك السعر، ولا يهم كم هو السعر الحقيقي، لن أدفع أكثر من ذلك.

سحب "دون هوانج" يده للخلف قائلاً:

- لم أخدعك، لقد اشتريتها مستعملة بثمانين يواناً، احتفظي بمالك، فلا ذنب لك في هذا.

مدت الفتاة يدها غاضبة وقالت:

- الدراجة سُرقت بسببي، وعليّ أن أدفع لك تعويض، مد يدك وخذ المال.

- أنا مُصِرّ أن الخطأ خطأي ولا علاقة لكِ بذلك،

ثم هم بالانصراف قائلاً:

- سأحضر لك الفيلم المرة المقبلة.

فيما ظلت الفتاه تنادي عليه تطلب منه أن يعود ويأخذ المال.

بعد ذلك كان "دون هونج" يذهب راكضاً لتوصيل الأسطوانات خلال المسافات التي لا تتعدى الثلاثة كيلو مترات. كان بارعاً في الركض عندما

كان طالباً، ولأنه لم يركض منذ فترة طويلة، فلم يكن معتاداً في البداية. ولكن بمرور الوقت بدا الركض مُمتعاً بالنسبة له. في المرة التالية ذهب راكضاً لتوصيل فيلم "سارق الدراجة"، فيما أصرت الفتاة على أن يأخذ المال وإلا اشترت له دراجة جديدة، ولكن "دون هوانج" رفض قائلاً إنه يستمتع بالجري الآن، وعليه ان يستمر في ممارسة الرياضة. حدقت فيه الفتاة متسائلة:

- هل جئت إلى هنا ركضاً"؟

- نعم، ولولا إشارات المرور ما كنت لأتوقف طوال الطريق.

ضحكت الفتاة. ظهرت أسنانها ناصعة البياض وبدت أجمل بكثير عن ذي قبل وقالت: - تحاول أن تخدعني ثانيةً. عموماً، إن لم يكن هذا الفيلم جيداً سيكون حسابك معي عسيراً.



11



في ذلك اليوم عندما كان في طريق عودته من "تشي تشوين لي" وعلى مقربة من جامعة بكين للدراسات الأجنبية، تلقى اتصالاً تليفونياً. كان المتصل ذكراً يتحدث بصوتٍ خافتٍ يقول له:

- لقد طالعت إعلانك، هل لديك أسطوانات إباحية؟

- نعم لديّ، كم واحدة تريد؟

- كلما كان معك كمية أكبر كان أفضل.

- أين أنت؟

- عند البوابة الشمالية لجامعة بكين لعلوم الفضاء، أرتدي معطفاً رمادي اللون وكرافتة حمراء.

ركب "دون هوانج" سيارة على الفور مُتَجهاً إلى هناك. شاهد ذلك الشخص يجلس على الرصيف المقابل لبوابة الجامعة ويرتدي الكرافتة الحمراء. تقدم "دون هوانج" نحوه حاملاً حقيبته وسأله:

- هل تريد أسطوانات؟

أومأ ذو المعطف الرمادي برأسه موافقاً، وقال له:

- لنذهب إلى مكانٍ خالٍ من المارة.

سارا سوياً وانعطفا في زاوية طريق ضيق. توقفا. أخرج "دون هوانج" من الجيب الخلفي لحقيبته ثلاث أسطوانات إباحية.

سأله الرجل:

- هل لديك المزيد؟

وضع "دون هوانج" الحقيبة على الأرض أمام قدميه، وأخرج منها بضع عشرة أسطوانة، وقال له:

- هذا كل ما لديّ.

نظر ذو المعطف الرمادي إلى الحقيبة المفتوحة أمامه وقال:

- لديك أسطوانات كثيرة هنا، هل أجد لديك أفلاماً بها مناظر خليعة؟

أخرج له "دون هوانج" خمس أسطوانات من داخل الحقيبة وكأن يده تعرف مكانها تحديداً، لم يكن لديه الكثير منها؛ فهذه الأفلام ليست رائجة في البيع كالأفلام الإباحية. التقطها منه ذو المعطف الرمادي وأخذ يُقَلِّب فيها بينما كان يهز قدميه وقال فجأة:

- أنا شرطي.

ذُهِلَ "دون هوانج" برهة ثم قال ضاحكاً:

- لا تمزح يا صاحبي، فأكثر ما أخشاه هو الشرطة.

قال ذو المعطف:

- الا تصدقني؟

ثم أخرج هويته من جيبه وفتحها أمام ناظري "دون هوانج"، أمسك بحزام الحقيبة في الوقت نفسه قائلاً:

- سأتحفظ على هذه الأسطوانات.

أشار "دون هوانج" إلى الأرض قائلاً:

- هل هذه نقودك؟

ما إن التفت الشرطي برأسه حتى اختطف "دون هوانج" حقيبته بسرعة وفر هارباً. انطلت على الشرطي خدعة "دون هوانج" ولم يفلح حتى في الإمساك بالحقيبة، فقد كان مُمْسِكاً حزام الحقيبة بيد واحدة مما سَهَّلِ على "دون هوانج" اختطافها وتسبب ذلك في جزع بمعصمه. نادى الشرطي عليه لكي يتوقف ويسلم نفسه ولكن "دون هوانج" كان يركض بكل ما أوتي من قوة. كانت سوستة الحقيبة مفتوحة وهو ما أدى إلى تساقط بعض الأسطوانات على الأرض. لحُسن حظه أنه كان سريعاً في الركض والا كان الشرطي قد لحق به. ظل يركض بدون توقف حتى وصل إلى بوابة المعهد الأكاديمي، توقف ليلتقط أنفاسه ثم قام بشد سوستة حقيبته بسرعة، وعندما لم يرَ أثراً لذلك الشرطي جلس على الرصيف، حيث كانت يرتعش من شدة الخوف، فقد استرجع ذكريات القبض عليه المرة السابقة عند كوبري "هاي ديان". قال في نفسه، "أنا محظوظ هذه المرة، لقد نجحت في الهرب".

مضت بضع ساعات لم يستوعب خلالها "دون هوانج" ما الذي حدث له. يا له من يوم مشئوم، عليه كبائع أسطوانات مقلدة أن يأخذ كامل

حذره بعد ذلك. كان القلق لا يزال يعتريه من أن يلحق به ذلك الشرطي. لقد فقد حوالي ثلاثين أسطوانة وهو ما يُعد خسارة كبيرة بالنسبة له. رن جرس تليفونه بينما كان شارداً فيما حدث له اليوم وهو ما أصابه بالفزع. كان المتصل هو "كوانج شان"، يتصل من تليفون شخص آخر ليخبره أن الفيلم الكوري THE ISLE الذي طلبه متوفر الآن، ويمكنه أن يأخذه في أي وقت. كان مُتردداً في البداية هل يجيب على التليفون أم لا لأن الرقم كان مجهول بالنسبة له. بعدها رن تليفونه مرةً أخرى وكان الرقم مجهولاً أيضاً، أجاب بعد تردد هذه المرة أيضاً. سمع المتصل يقول:

- آلو، هل هذا أنت يا "كرو"؟ أين أنت أيها الصعلوك، مضت أشهر طويلة منذ آخر مرة رأيتك فيها.

تنفس "دون هوانج" الصعداء وأجابه:

- أنا آسف يا سيدي، اتصلت بالرقم الخطأ.

- اتصلت بالرقم الخطأ؟ هل تظن أنك ستخدعني عندما تُغَيِّر من نبرة صوتك، أنا أعرفك جيداً يا "كرو".

- يا سيدي أُكَرِّر كلامي ثانيةً، لقد اتصلت بالرقم الخطأ.

- هل هذا صحيح؟

- يا لك من معتوه.

أغلق التليفون.

اتصل به ذلك الشخص ثانيةً ولم يرد عليه "دون هوانج". استمر في الاتصال فلم يجد "دون هوانج" بداً من أن يرد عليه.

اعتذر له المتصل قائلاً:

- أنا آسف لإزعاجك، ولكن هل تعرف رقم تليفون "كرو"؟ لقد حصلت على رقمك من خلال أحد أصدقائي.

- أنا لا أعرف السيد "كرو" هذا، ربما عليك أن تبحث عنه في المدينة المحرمة، فهناك الكثير من الغربان، أنا أعرف السيد ببغاء فقط.

شعر "دون هوانج" بقليل من الراحة بعدما سخر منه، وقرر أن ينسى ما حدث ويعود لبيع أسطواناته. ولكنه لم يلبث أن أخذ يسب ذلك الشرطي ذي المعطف الرمادي، حيث استمر طوال طريقه يقول: "شرطي لعين، شرطي لعين". كان على وشك الوصول إلى منطقة "هاي ديان" حين جال بخاطرة فجأة مشهد بطاقة الشرطة التي كان يحملها ذلك الشخص ذو المعطف الرمادي، شعر حينها أن هناك خطب ما بتلك البطاقة. حاول تذكر تفاصيل البطاقة بالكامل، بداية من الغلاف والختم والكتابة، ثم تذكر أن الحروف كانت قد تجاوزت الإطار المكتوبة بداخله. في الأحوال الطبيعية لا يكون تصميم هويات أفراد الشرطة بذلك الشكل. هو يعرف ذلك جيداً، عندما كان يقوم بتزوير الهويات كان المصممين يتعمدون تصميمها بهذا الشكل. كان أحد الزبائن قد طلب هوية مزيفة من "باو دينج"، وذهب "دون هوانج" معه لاستلام الهوية من المصمم، حينها قال "باو دينج" للمصمم إن هناك خطأ ما في التصميم، ولكن المصمم أخبره أنهم يتعمدون ذلك وخاصةً عند تزوير هوايات أفراد الشرطة، عليك أن تجد لنفسك مخرجاً في حال قُبض عليك. تماماً كالعملات المزيفة، لو دققت في التفاصيل

الصغيرة ستجد اختلافاً. تذكر "دون هوانج" كلام ذلك المصمم حين قال: "بالرغم من أننا مزورين إلا أننا نلتزم بأخلاق المهنة".

استعاد "دون هوانج" مشهد البطاقة التي كان يحملها ذو المعطف الرمادي. بالتأكيد كان هناك خطب ما بها. تَحَسَّن مزاجه قليلاً حينها، ثم أخذ يسب ذو المعطف الرمادي قائلاً: "هذا اللعين، يحاول أن يخدعني ببطاقته المزيفة". كان سعيداً بهذا الاكتشاف؛ حتى إنه نسي أمر ذلك المعتوه الذي يبحث عن شخص يُدعى "كرو". فمن يدري ربما كان قد اتصل بالرقم الخطأ بالفعل، أو ربما كان شخصاً يُعَاني من الملل يبحث عن أشخاص يستفزهم. حينها طرأت على باله فكرة أخرى، لماذا لا يستخدم الطريقة نفسها في البحث عن "تشي باو"؟ كيف لم يفكر في هذه الطريقة طوال هذا الوقت. ابتسم حينها بينما ظل يمتدح نفسه على هذا الذكاء اللامع.

بدأ في تنفيذ فكرته، فأخذ يبحث عن إعلانات مزوري الأوراق الملصقة في الشوارع والمواصلات وعلى اللافتات وداخل صناديق المخلفات. كانت جميعها مكتوبة بالطريقة نفسها: "لدينا كل أنواع الهويات والفواتير"، ثم رقم التليفون. أخذ "دون هوانج" يجمع هذه الملصقات فبلغ ما جمعه اثنين وعشرين إعلاناً بأرقام تليفونات مختلفة. عاد إلى غرفته وأخذ يتصل بهذه الأرقام واحداً تلو الآخر.

إذا كان الطرف الآخر فتاة كان يسألها:

- هل أنت "تشي باو"، أنا "كرو".

وإذا أجاب الطرف الآخر بالنفي، اعتذر ثم أنهى المكالمة.

وإذا كان الطرف الآخر ذكراً سأله:

- أنا "كرو"، هل رأيت "تشي باو" مؤخرًا؟

وإذا أجابه الطرف الآخر بأنه لا يعرف من هو "كرو" أو من هي "تشي باو"؛ اعتذر ثم أنهى المكالمة.

أحياناً يكون الطرف الآخر جنوبياً يتحدث بلهجة بكينية متعثرة، وآخر يكون حسن الأسلوب، يجيب بأسلوب مهذب ثم يُنهي المكالمة، وأحياناً يكون شخصاً عصبياً ينهال عليه بوابل من السباب أو ينعته بالجنون والخبل والوقاحة وما إلى ذلك.

اتصل بجميع الأرقام التي لديه ولكن بلا جدوى. لم ييأس، فهذه هي الطريقة الأفضل للبحث عن "تشي باو"، وهو الآن يمسك بخيط ما في يده، والأمور الآن أفضل عن ذي قبل. وما دامت "تشي باو" لا تزال تعمل في هذه المهنة فحتماً سيعثر عليها يوماً ما. أما إذا كانت قد غَيَّرت من مهنتها، سيكون لديه مُبَرِّر يدافع به عن نفسه حين يسأله "باو دينج". كل ما عليه الآن هو أن يستمر في جمع الإعلانات، وهذا أمر سهل بالنسبة له، بل يمكنه لصق إعلاناته الخاصة في حين يمزق إعلانات الآخرين.

استمر في جمع الإعلانات لمدة أسبوع كامل، ولم يكن ذلك ليعيقه عن بيع الأسطوانات. عند عودته إلى غرفته كل ليلة كان يتصل بأصحاب الإعلانات بالطريقة نفسها، فخلال هذا الأسبوع أجرى ما لا يقل عن ثلاثمائة مكالمة. لم يكن يأمل أن يكون رقم "تشي باو" من ضمن هذه

الأرقام، ولكنه كان يأمل أن يكون هناك واحد من بين هؤلاء الثلاثمائة يعرفها. كان على يقين من أن هذه الأرقام لم تكن لتشمل جميع العاملين في هذه المهنة في بكين كلها، ولكنه كان يعرف أن هذه الأرقام تُمَثِّل ما نسبته نصفهم أو ثلثهم على الأقل. ولذلك فالعثور على الفتاة أصبح وشيكاً أكثر فأكثر، مسألة وقت ليس إلا. عليه الآن أن يركز وألا يعاود الاتصال بالأرقام المكررة، فقد فعل ذلك عدة مرات. كان يضع الأرقام في ترتيب ثم يضع علامة أمام كل رقم يتصل به.

ثلاثمائة مكالمة ولا أثر لـ"تشي باو". أخذ "دون هوانج" يلملم كروت الشحن التي استخدمها في إجراء هذه المكالمات. كان يحفز نفسه على الاستمرار معتبراً أنه قد اشترى بهذا المال كرتونه من البيرة لـ"باو دينج". في ظهيرة أحد الأيام كان يبيع أسطواناته بالقرب من كوبري "هانج تيان"؛ حيث شاهد سيدة أربعينية تسير أعلى الكوبري تحمل طفلاً صغيراً بينما كانت تقوم بلصق بعض الإعلانات. تتبع تلك السيدة ونظر إلى الإعلانات التي تلصقها؛ فوجد رقم تليفون يبدو غير مألوف بالنسبة له، ومن ثم قام من فوره بالاتصال على هذا الرقم، وكان صوت الطرف الآخر صوت فتاة شابة.

سأل "دون هوانج":

- هل أنتِ "تشي باو"؟ أنا "كرو".
- "كرو"؟ لا أعرف أحداً بهذا الاسم.
- هل تعرفين "تشي باو"؟
- من أنت بالتحديد؟

- اخبريني أولاً هل تعرفين "تشي باو" أم لا؟
- نعم أعرفها.
- رائع، أنا "دون هوانج"، هل بإمكانك أن تخبريني أين هي؟.
- ومن يكون "دون هوانج"؟
- "دون هوانج"، صديق "باو دينج"، هو من طلب مني أن أعثر عليها.
- حقاً، لماذا لم تخبرني من البداية أنك صديق "باو دينج"؟ أنا "تشي باو".
- وأين أنتِ الآن؟
- أنا في السرير.

كانت تسكن في مكان غير بعيد عنه في منطقة "هوا يوان تسون"، وكانت قد استيقظت لتوها من النوم. طلب "دون هوانج" منها أن يتناولا العشاء سوياً، فوافقت على الفور، فهي فتاة كسولة لدرجة أنها لا تريد أن تطبخ طعاماً لنفسها. اتفقا على أن يتقابلا أسفل كوبري المشاة في منطقة "هوا يوان تسون". وصل "دون هوانج" قبلها وجلس على سلالم الكوبري وأشعل سيجارة. كان متحفزاً للقائها، قال في نفسه، أخيراً عثرت عليها. لقد أوفيت الآن بجزء من ديني لـ"باو دينج". فوجئ بشخص يُرَبِّت على كتفه من الخلف، التفت فوجد فتاة شابة جميلة ممتلئة القوام، شعرها طويل ممشط بالمكواة ليبدو مُجعداً، ترتدي سُترة صوفية وتَنَّورة مُخَطَّطة. وكانت ياقة سترتها واسعة بحيث تبرز صدرها الممتلئ.
- "تشي باو"؟

- "دون هوانج"؟

نهض مبتسماً، ثم نظر إليها من الخلف قائلاً في نفسه، المؤخرة نفسها تماماً.

سألته "تشي باو":

- ماذا تفعل؟

قال "دون هوانج" متلعثماً:

- لا شيء، هيا بنا لنتناول الطعام، لقد طلب مني "باو دينج" أن أعتني بك جيداً.

- وأين هو الآن؟ لقد انقطعت أخباره. قال لي مُسبقاً أنه سيأخذني في نزهة إلى سور الصين العظيم.

- ألا تعرفين؟ هو الآن في السجن، وقد خرجت أنا الآخر حالاً.

- اللعنة، وأنا التي كنت أتساءل لماذا اختفى فجأة. "باو دينج" شخص طيب على أي حال.

ثم تحسست حقيبتها قائلة:

- هل معك سجائر؟

أعطاها "دون هوانج" سيجارة، ثم أشعلها لها قائلاً:

- لم أكن أعرف أنكِ تدخنين.

- الحياة مملة بدون تدخين؛ وخاصةً هذه الأيام، فالتجارة ليست على ما يرام، كل ما أفعله هو أنني أشاهد التليفزيون يومياً حتى استغرق في النوم.

ذهبا سوياً إلى مطعم للأكلات الحارة. في الطريق سألها "دون هوانج":

- إذا كانت التجارة ليست على ما يُرام، فلماذا تستأجرين أحدهم ليلصق إعلاناتك؟

- يبدو أنك شاهدت أحدهم يقوم بلصق إعلاناتي، على أي حال لن أذهب كي ألصق إعلاناتي بنفسي، يا له من أمر مُخْجِل.

وسألته:

- ما الذي تحمله في هذه الحقيبة؟

أجابها قائلاً:

- أسطوانات مقلدة، فأنا الآن أبيع هذه الأشياء.

لم يكن المطعم كبيراً. طلب "دون هوانج" قائمة الطعام وأخذ يُقَلِّب فيها. كانت الأسعار مرتفعة للغاية، مما أصابه بالذهول. طبق قطع الدجاج الحار بثمانية عشر يواناً! يا لها من ورطة. طلب منها أن تطلب ما تريد، أخذت "تشي باو" تنظر في قائمة الطعام وهي تقول:

- هذا المطعم ممتاز، فأصدقائي دائماً ما يُرشحونه لي.

طلبت طبقاً من السمك المسلوق، ومكرونة بقطع الدجاج، وطبق خضراوات وبعض المخللات الحارة. يبدو أن هذه الدعوة ستكلفه الكثير من المال، ولكن فَكَّرَ قائلاً:

- سأعتبر نفسي قابلت اثنين آخرين أمثال ذلك الشرطي المزيف ذي المعطف الرمادي.

سألته "تشي باو":

- ولماذا تبيع الأسطوانات المقلدة وتركت العمل في تزوير الأوراق؟

أجابها:

- في البداية لم أكن أعرف ماذا عليّ أن أفعل، قلت لنفسي سأبيع الأسطوانات لفترة مؤقتة، بعد ذلك وجدتُ نفسي مُنخرطاً في هذه التجارة.

- وهل تحب هذا العمل الآن؟

- الأمر عادي بالنسبة لي، بالرغم من أني لا أربح الكثير من هذا العمل، إلا أنني أشعر بالاستقرار، وعندما أشعر بالملل أشاهد بعض الأفلام، والأمور تسير بشكل جيد.

قالت مازحة:

- أصبحت مثقفاً بعد خروجك من السجن. هل دخلتما السجن سوياً؟

- نعم، في الحقيقة، إن "باو دينج" دخل السجن بسببي.

- كفاك هراء، فمن يعمل في هذه المهنة هو من يتسبب في دخول نفسه السجن.

ابتسم "دون هوانج" شاكراً لمواساتها، ثم سألها:

- كم عمرك؟

- يا لك من وقح، ألا تعرف أنه من غير اللائق أن تسأل فتاة عن عمرها؟

- أنا آسف، لم يكن ينبغي عليّ أن أسأل.

- يمكنك أن تخمن كم عمري.

- اثنين وعشرين.

ضحكت قائلة:

- أنت ماهر في الكلام أكثر من "باو دينج".

ثم أشعلت سيجارة أخرى وقالت:

- عمري ثلاثة وعشرين، وأنا على وشك أن أنسى ملامح ذلك الوغد "باو دينج".

قال لها:

- ولكنه يتذكرك جيداً.

- تباً لك، فما أكثر الرجال الذين يتذكرونني، أنت نفسك هل تتذكرني أم لا؟

- نعم أتذكرك، ثم سألها، ما رأيك في الطعام؟

- الطعام هنا رائع.

بعد العشاء ذهب "دون هوانج" معها ليتعرف على مكان سكنها. كانت تسكن في شقة مكونة من غرفتين مشاركة مع فتاة أخرى، كل منهما تسكن في غرفة مفردة. كانت الغرفة صغيرة ولكنها مرتبة بشكل جيد، بها سرير وجهاز تليفزيون ومُشَغِّل أسطوانات ومكبِّر صوت وسجادة. كان فراشها غير مرتب، ولهذا طلبت منه ألا ينظر إلى سريرها. كان مُعجباً بشخصيتها، كما كان يشعر أنها متوافقة تماماً مع ذوق "باو دينج". لا عجب في أنه متمسك بها إلى هذه الدرجة. جهزت "تشي باو" له كوباً من القهوة؛ حيث اختلطت رائحة القهوة برائحة الأنثى التي تملأ الغرفة وهو ما جعله شبه فاقد للوعي.

قال لها:

- يبدو أن إيجار هذه الغرفة باهظ الثمن.

- لا يهم، أنا أعيش وحدي في بكين؛ وعليّ أن أعتني بنفسي جيداً.

- أنتم الفتيات عموماً تعرفن كيف تتمتعن بالحياة، أما أنا فعليّ أن أكون حريصاً في الإنفاق قدر الإمكان، وإلا كيف ادخر المال الكافي لكي أساعد "باو دينج" في الخروج من السجن.

- لا تُحَمِّل نفسك أكثر من طاقتها، "باو دينج" سيمكث في السجن سنة أو اثنين ثم يخرج، وسواء أكان داخل السجن أم خارجه فهو حي يرزق.

- بالنسبة لي الأمور مختلفة تماماً، فهو قد دخل السجن بسببي، ويتوجب عليّ مساعدته.

- لم أكن اتخيل أنك بهذه الشهامة.

انتهى من شُرب قهوته، ثم رن جرس تليفون "تشي باو"؛ كان أحدهم يتصل بها بشأن العمل. نظرت إلى "دون هوانج" الذي قال لها:

- لا يوجد مشكلة، اذهبي إلى عملك، وأنا أيضاً يتوجب عليّ أن أذهب لشراء أسطوانات جديدة.

قبل أن يُغَادر "دون هوانج"، سألها إذا كانت لديها أفلاماً مفضلة أم لا، فبإمكانها أنت تنتقي مما لديه من أسطوانات كيف تشاء. انتقت خمس أسطوانات ثم قالت له إنها ستعيدها إليه فور الانتهاء من مشاهدتها، فهي دائمة الذهاب إلى وادي السيليكون قريباً من مسكنه.

12



التقيا مرةً ثانية بعد يومين. كان "دون هوانج" يبيع الأسطوانات بالقرب من جامعة المعلمين، ثم اتصل بها حيث كانت بالصدفة موجودة في بيتها. قابلها وذهبا معاً لتناول العشاء، وكانت هذه المرة على حساب "تشي باو"، كما أنها أعادت له الأسطوانات التي كانت قد أخذتها منه المرة السابقة، ثم اختارت خمس أسطوانات جديدة. كلاهما غريب يكافح في هذه المدينة، وهناك مجالات مشتركة للحديث فيما بينهما. مازحها "دون هوانج" قائلاً:

- طلب مني "باو دينج" أن أعتني بك، فهل لديك أي أعمال بدنية تريدين مني أن أقوم بها بدلاً منك؟

قالت له:

- أعتقد أنك مناسب للقيام بالأعمال البدنية، ولكني لست في حاجة لذلك الآن.

- أوكي، سأنتظر عندما تكوني في حاجة إلى ذلك.

مدت يدها نحو وجهه وتظاهرت بأنها تصفعه يميناً ويساراً وهي تقول:

- احترس من عقاب "باو دينج" عندما يخرج من السجن.

وانخرطا سوياً في الضحك.

المرة التالية التي تقابلا فيها كانت عندما جاءت "تشي باو" إلى حي "هاي ديان" لتسليم بضاعتها إلى أحد الزبائن، ثم ذهبت في طريقها لمقابلة "دون هوانج" لتسليمه الأسطوانات الخمس القديمة. في تلك الأثناء كان "دون هوانج" قد عاد إلى غرفته بحلول المساء حيث جلس ينتظر مكالمة ذلك الطالب في جامعة بكين الذي طلب منه النسختين (القديمة والجديدة) من فيلم SPRING IN A SMALL TOWN. شعر بالملل فأخذ يشاهد على فيلم إباحي ياباني. اتصلت به "تشي باو" تخبره أنها قادمة لزيارته وأنها موجودة الآن عند البوابة الغربية لجامعة بكين. أغلق "دون هوانج" جهازي التليفزيون ومُشَغِّل الأسطوانات على الفور وذهب لاحضارها.

لم تعجبها غرفة "دون هوانج"، كما أنها تذمرت من عدم وجود شيء يمكن تناوله أو شربه. ذهب "دون هوانج" إلى متجر البقالة القريب واشترى لها مياه معدنية وبعضاً من الشاي الأخضر. كانت الغرفة صغيرة ولا يوجد بها سوى كرسي وسرير، ومن ثم اضطرا إلى الجلوس على السرير شبه متلاصقين. شعر "دون هوانج" بشيء من الحرج، وبالرغم من أن

"تشي باو" كانت ترتدي تنورة وجورب شفاف طويل إلا أنه كان يشعر بأن بشرته تُلامس بشرتها. كان محرجاً لدرجة أنه لم يكن يدري ماذا يقول لها، ثم طلب منها أن تنتقي أسطوانات جديدة لتشاهدها وقت فراغها. بينما كان يهم بفتح حقيبته لكي يخرج الأسطوانات، اتصل به طالب جامعة بكين يُخبره أنه في انتظاره الآن، حينها طلب "دون هوانج" من "تشي باو" أن تنتظره قليلاً وأنه سيقوم بتسليم الأسطوانات ثم يعود على الفور. هرول "دون هوانج" مسرعاً لتسليم الأسطوانات. كان ذلك الطالب في انتظاره أسفل المبنى؛ حيث طلب منه أن يصعد معه فهناك الكثير من زملائه الذي ينوون شراء المزيد من الأسطوانات. صعد معه لمقابلتهم وقام بتدوين أسماء الأفلام التي طلبوها منه، وبدون أن يدري استغرقت هذه العملية منه نصف ساعة حتى تمكن من العودة إلى غرفته. فوجئت به "تشي باو" وهو يدفع الباب ويدخل إلى الغرفة. أمسكت جهاز الريموت محاولة إغلاق التليفزيون. من شدة الارتباك ضغطت "تشي باو" على زر إيقاف الصورة بدلاً من زر الإغلاق. نظر "دون هوانج" إلى شاشة التليفزيون فوجد مشهداً لشاب وفتاة عاريين في وضع حميم. احمر وجه "تشي باو" وطرحت جهاز الريموت على الأرض بعيداً. شعر "دون هوانج" أن عليه أن يزيل الحرج عنها. التقط جهاز الريموت من الأرض وقال:

- ما المحرج في مشاهدة فيلم إباحي، لقد كنت أنا الآخر أشاهد هذا الفيلم قبل حضورك، ما رأيك في أن نشاهده سوياً؟

شعرت "تشي باو" ببعض الارتياح وقالت:

- من ذلك الذي يشاهد معك فيلماً كهذا؟

- كما تشائين، ولكنك ستندمين، أنتِ الآن شابة صغيرة وعندما تتقدمين في السن لن يكون لديك مزاج لمشاهدة هذه الأفلام.

قال هذه العبارة وقفز جالساً بجوارها وضغط على رز التشغيل. كانت "تشي باو" قد أغلقت الصوت مسبقاً، ولكن "دون هوانج" تعمَّد تشغيله أيضاً. جلست "تشي باو" تحملق في الشاشة دون حراك أو حديث، فليس أمامها الآن سوى أن توجه نظرها نحو الشاشة وكأن عنقها قد تجمد في تلك الوضعية. كان الشاب والفتاة بطلي الفيلم متناغمين يؤدون الحركات بسلاسة يشوبها بعض العنف، كما أن أصواتهما المثيرة كانت معبرة للغاية. امتلأت الغرفة الصغيرة بأصوات التأوهات الدافئة، وكان "دون هوانج" و"تشي باو" يجلسان على السرير متحجرين كالمومياوات المحنطة يستمعان إلى أنفاس بعضهما البعض. تحرك "دون هوانج" تجاهها قليلاً وتحركت هي الأخرى تجاهه حتى التصقت ركبته بركبتها. تسارعت خفقات قلبيهما ولم يسحب أي منهما قدمه بعيداً وكأن شيئاً لم يحدث. اقترب كل منهما بوجهه تجاه الآخر، لينظرا في أعين بعضهما الملتهبة، حينها لم تتمالك "تشي باو" نفسها واحتضنته بشدة قائلة:

- "دون هوانج"، "دون هوانج".

بينما همس لها هو الآخر قائلاً:

- "تشي باو"، "تشي باو".

اشتعل الموقف بينهما كما هو الحال بين الشاب والفتاة في الفيلم الذي كانا يشاهدانه. دُهش "دون هوانج" من سرعتها في خلع ملابسها، كما

دُهش أكثر من حركاتها التي أقل ما تُوصف بالبرية والجموح. فالخبرات التي اكتسبها من "شياو رونج" لم تكن لتجدي نفعاً مع "تشي باو"، فقد كانت "شياو رونج" هادئة ورصينة، تماماً كأفلام التصوير البطيء، أما "تشي باو" فكانت عنيفة وشرسة، فعندما كانت فوق جسده، شعر بأنه سقط من ارتفاع عالٍ في نهر جارف، لدرجة أنه نسي تماماً ماذا عليه أن يفعل. بعدها هدأ ذلك النهر الجارف وشعر "دون هوانج" كأنه يطفو على سطحه الهادئ في انسيابية ونعومة. شرد ذهنه للحظات ثم أحس وكأن جسده ممدد فوق سرير كبير عائم.

حينها كان الصراع المحتدم على الشاشة قد توقف هو الآخر، حيث اصطبغت الشاشة بلون أزرق كلون الموت.

تظاهرت بأنها تضربه على وجهه ثانيةً وقالت له:

- أنت حقاً شاب يافع.

- وكيف لا أكون.. لقد أجريت من ثلاثمائة إلى أربعمائة مكالمة حتى تمكنت من العثور عليكِ.

ابتسمت له ابتسامة وقحة قائلة:

- أجريت من ثلاثمائة إلى أربعمائة مكالمة من أجل ما فعلناه الآن؟

اعتدل بجسده قائلاً:

- لا، بل لأن "باو دينج" طلب مني أن أعتني بك.

- لا تذكر اسمه أمامي ثانيةً بحق الجحيم، فأنا لست ملك له. كل ما في الأمر هو أني مارست معه الجنس فقط. بأي حق يطلب منك أن تعتني بي؟

واعتدلت جالسة وهمَّت بارتداء ملابسها.

نهض "دون هوانج" جالساً هو الآخر. التقط ملابسها من الأرض وأعطاها لها قائلاً: - تنوين المغادرة؟ انتظري حتى أوصلك إلى بيتك.

طرحت ملابسها جانباً وقالت:

- تريد أن تطردني، أوكي، أنا لن أغادر وسأبيت هنا الليلة.

بالفعل، نفذت ما قالته. ذهبا ليتناولا العشاء وعادا مرةً ثانية إلى غرفته. شاهدا معاً فيلم HAIL THE JUDGE للمخرج "تشو شينج شي". تأهبا للنوم ولم يتمالكا نفسيهما من ممارسة الجنس مرةً أخرى. ومع سكون الليل احتضنته "تشي باو" بشدة قائلة:

- أشعر معك بالأمان.

- صرتُ نحيلاً الآن، لو احتضنتيني عندما كنت أكثر امتلاءً لشعرت بالأمان أكثر.

- يا لك من غبي، أنا أعني إنني أشعر معك بالألفة، فعندما أكون وحدي أشعر بالوحدة؛ حتى إنني أحياناً أريد البكاء ولكن لا أستطيع، هل انتابك مثل هذا الشعور من قبل؟

- أنا مشغول للغاية حتى إنه لا وقت لديّ للضحك، ناهيكِ عن البكاء.

- أنتم الرجال عديمي المشاعر.

- يمكنك أن تتزوجي وحينها لن تشعري بالوحدة.

- وهل تظن أن الزواج بهذه السهولة؟

- هل هو صعب؟ إذا لم يكن هناك أحد يريد الزواج منك، يمكنني أن أتحامل على نفسي وأتزوجك.

- يبدو أنك أُصبت بالهذيان! هل لديك مال؟ أتظن أنني سأعيش معك نقتات على غبار العواصف الرملية!

- أنتِ محقة.

توقفا عن الحديث. احتضن كل منهما الآخر واستغرقا في النوم. راوده حلم رأى فيه "شياو رونج" واقفة أعلى كوبري المشاة تنادي عليه، تماماً كما حدث قبل ذلك. كانت تنادي عليه وهي تجهش بالبكاء، ثم هوت من أعلى الكوبري كقطعة ملابس بالية. استيقظ "دون هوانج" مذعوراً والعرق يتصبب منه، بينما كانت "تشي باو" تنام على كتفه نوماً عميقاً وهي تحرك فكها بحيث يصدر منه صوت اصطكاك الأسنان ببعضها. تلك الفتاة التي تنام في أحضانه وكأنها تأكل في منامها هي الآن في الثالثة والعشرين. احتضنها بشدة، حيث شعر بأنه يريد البكاء ولكن لم يستطع، تماماً كما قالت له قبل ذلك.

حاول عدم التفكير في أمر "باو دينج" قدر الإمكان، كل ما يفعله هو شراء الأسطوانات وبيعها، وعندما يشتاق لـ"تشي باو" يتصل بها؛ إذا كانت تريد الذهب إليه عاد وانتظرها في غرفته، وإذا طلبت منه أن يذهب إليها ترك ما في يده وذهب للقائها مُسرعاً. ولأن إيقاع حياته منتظم على عكس "تشي باو" التي تعمل في مهنة تزوير الأوراق ولديها الكثير من الأصدقاء الذين غالباً ما يجتمعون سوياً للهو، لم يكن لها أوقات محددة تستطيع أن تقابله خلالها، فأحياناً كان "دون هوانج" يتصل بها بعد الثانية عشرة ليلاً بينما تكون هي خارج البيت. ذات مرة نصحها "دون

هوانج" بألا تبقى خارج البيت لأوقات متأخرة من الليل حرصاً على سلامتها ولكنها أجابته بأنها لا تخشى شيئاً وأن الموت بالنسبة لها أفضل من حياتها التعيسة. كان يقوم بترتيب الأسطوانات وقال:

- كيف تتحدثين بهذه الطريقة، ماذا لو اعترض أحدهم طريقك في هذا الوقت المتأخر؟

- يعترض طريقي ليسرقني أم ليغتصبني؟ إذا كان بغرض السرقة فليس معي مال، وإذا كان بغرض الاغتصاب، فهذا ما أريد. أنا أود أن أعرف إذا كان هناك من هو أقوى منك في ممارسة الجنس أم لا!

- أرى أنكِ تتعمدين إثارة غضبي!

كانت "تشي باو" جالسة تقوم بطلاء أظافرها بلون أسود، ولم ترفع رأسها حتى، ثم استطردت:

- أمثالك ممن يفكرون بأمر ما، ويقلقون بشأن أمر آخر هم من يثيرون غضب أنفسهم ويجلبون لها المتاعب.

شعر "دون هوانج" أن بكلامها شيء من الصواب. ترك الأسطوانات من يده وفكر قليلاً: كيف أصبح بهذه الحالة فعلاً وهو لا يزال في الخامسة والعشرين من عمره؟ توقف عن التفكير وقال لها:

- لنتحدث بجد قليلاً، ما رأيك في أن نستأجر سكناً مشتركاً، وأن تتوقفي عن تزوير الأوراق، فهذه المهنة أصبحت خطراً في الآونة الأخيرة.

- لا وألف لا، انت تعيش بمفرك وانا أعيش بمفردي، فأنا لا أحب أن أتحكم في أحد أو أن يتحكم فيّ أحد.

- كما تشائين، فأنا لا أعرف كيف تعيشين في شقة واحدة مع تلك

الفتاة ذات الصوت الفظيع.

يقصد زميلتها في السكن. ففي مساء أحد الأيام، كانت "تشي باو" قد اتصلت به تخبره أن زميلتها في السكن لن تعود الليلة وتطلب منه الذهاب إليها. بالفعل ذهب "دون هوانج". وفي منتصف الليل عادت زميلتها في السكن بصحبة رجل آخر؛ حيث مارسا الجنس معاً في غرفتها وكانت تصرخ كما لو أن هناك عشرة رجال يمارسون الجنس معها ولم ينم "دون هوانج" ليلتها من شدة الإزعاج.

- وما دخلك بهذا الأمر، فتاة تمارس الجنس وتصرخ من شدة النشوة.. هل تظن أن الجميع مثلك يلتزمون الصمت أثناء ممارسة الجنس؟

نظر "دون هوانج" إلى ساقها المرفوعة وتنهد قائلاً:

- لا دخل لي طبعاً، كل ما في الأمر أنني مهتم براحتك، فأنتِ الآن حبيبتي.

- من قال إني حبيبتك، عليكِ أن تنسى هذا الأمر ولا تفكر فيه حتى مجرد التفكير. استمرت في طلاء أظافرها.

استمر في ترتيب الأسطوانات. بينما استوقف نظره أسطوانة فيلم "سارق الدراجة". حيث تذكر تلك الفتاة التي تعيش في منطقة "فو رون لي". مرت عدة أيام منذ كانت آخر مرة اتصلت به. كان ذلك بعد ثلاثة أيام من إعطائها فيلم "سارق الدراجة"؛ حيث أخبرته أنها انتهت من مشاهدة الفيلم وطلبت منه إحضار فيلم رعب عنيف وفيلمين آخرين. سألها "دون هوانج" ما هي نوعية هذين الفيلمين الآخرين؟ أجابته بأنها تريد فيلمين من نوعية فيلم "سارق الدراجة". سألها ثانية:

- هل أعجبك فيلم "سارق الدراجة"؟

- جاء أحد الضيوف، سأتصل بعد قليل.

وبعد خمس دقائق اتصلت قائلة:

- أنا آسفة، فأنا الآن مشغولة وسأتصل عندما يكون الوقت مناسباً.

وأنهت المكالمة.

ظل "دون هوانج" ينتظر وينتظر، ولكن دون جدوى، فلم تتصل به الفتاة مرةً أخرى. كان قلقاً في البداية، وظل يتصل بها لعدة أيام متتالية ولكنها لم ترد على مكالماته. بعد ذلك نجح في العثور على "تشي باو" وهو ما جعله ينسى أمرها.

استرجع "دون هوانج" ذاكرته. لقد مرت سبعة عشر يوماً دون حس أو خبر، بدا الأمر مريباً بالنسبة له. حاول الاتصال بها ولكنها لم تجيب. من هنا قرر أن يذهب لرؤيتها. سأل "تشي باو" ما إذا كانت ترغب في الذهاب معه أم لا.

سألته "تشي باو":

- أذهب معك إلى أين؟

- سنذهب لزيارة فتاة.

- هل هي جميلة؟

- بالطبع.

- أوكي، سأذهب معك لمراقبتك.

ولكن ما إن سمعت أنه ينوي الذهاب راكضاً حتى نهضت من مكانها قائلة:

- هل تريد الركض عبر منطقة "تشونج قوان تسون" كلها؟ يبدو أنك جُننت! إن لم تكن قادراً على دفع أجرة السيارة سوف أدفع لك.

- يبدو أنكِ لا ترغبين في الذهاب معي، لتبقي في البيت وحدك إذن.

ظلت تتمتم لبعض الوقت ثم قالت:

- حسنا، فلنذهب سويا.

أخبرها "دون هوانج" عن أمر تلك الفتاة بإيجاز، وما إن خرجا من الباب حتى شرعا في الركض. ظلا يجريان حتى وصلا إلى متجر الباسيفيك للإلكترونيات، حينها لم تقوى "تشي باو" على المواصلة. تحاملت على نفسها حتى عبرا كوبري "تشونج قوان تسون"، وجلست على جانب الطريق قائلة إنها لن تتحرك من مكانها، وأصرت على أن يركبا سيارة أجرة. فهي لا ترغب في العودة وحدها، ولا ترغب في أن يتركها "دون هوانج" ويواصل الجري. لم يكن أمام "دون هوانج" خيار آخر، ومن ثم اضطر إلى أن يستوقف سيارة أجرة. وبينما كانت "تشي باو" تصعد إلى السيارة، قالت له:

- أنت حقاً مجنون.

وصلا إلى أسفل بيت الفتاة غريبة الأطوار، وأخذ "دون هوانج" يضغط على جرس شقتها، لم يجبه أحد.

قالت "تشي باو":

- عليك أن تنسى أمرها، فهي لا تريد حتى أن تفتح لك الباب.

أصر "دون هوانج" على الانتظار حتى جاء أحدهم وفتح الباب الرئيسي للمبنى ومن ثم دخلا خلفه. صعدا إلى الدور العلوي حيث تسكن فوجدا الباب موصداً من قِبَلِ الشرطة. قالت له "تشي باو":

- ماذا الآن؟ ذهب جهدنا هباءً.
- من قال ذلك! لنذهب إلى قسم الشرطة ونعرف ماذا حدث.

توقف "دون هوانج" أمام الباب قليلاً. كان يريد أن ينظر من خلال العين السحرية ليعرف ماذا يوجد بالداخل، ولكنها كانت مغلقة. سحبته "تشي باو" من ملابسه لكي يغادرا المكان. ولكنه جلس على درج السلم أمام الباب وأصر على أن يدخن سيجارة. ما إن أشعل سيجارته حتى مرت سيدة عجوز تسكن في الطابق العلوي، سألها "دون هوانج" ما الذي حدث بخصوص هذه الشقة؟ هزت رأسها قائلة إنها لا تعرف ماذا حدث، ثم استمرت في طريقها. سأل أحد الجيران الذي مر بهما ولم يكن يعرف هو الآخر.

سألته "تشي باو":

- لماذا كل هذا الاهتمام؟ يبدو أنكما على علاقة ما!
- كل ما في الأمر أني أريد أن أعرف ما رأيها في الفيلم الأخير.
- تقصد فيلم "سارق الدراجة"؟ هل الأمر بهذه البساطة؟
- ليس هناك ما يستدعي التعقيد، تخيلي أنني اختفيت فجأة دون أي أثر، لا تعرفين إذا ما كنتُ حياً أم ميتاً، ماذا كنتِ لتفعلي؟
- يا لك من لعين، لقد تأكدت الآن أنك على علاقة ما بهذه الفتاة.
- ألن تشعري بالحزن إذا اختفيت فجأة؟

- وما الفائدة من الحزن، فمن يدري لماذا اختفيت، ربما كان اختفاءك أمراً جيداً لا يستدعي الحزن. ولربما كان إغلاق هذه الشقة ليس بسبب هذه الفتاة. فمثلاً قد تكون عشيقة لأحد المسئولين المرتشين، أو أحد الأغنياء الفاسدين.

- أخشى أن تكون قد أُصيبت بمرض نفسي بسبب العزلة ومن ثم حدث لها مكروه!

- مرض نفسي؟ يا لك من عَلاَّمة فذ. يبدو أنها كانت ثريه بحيث لم تتمكن من إنفاق كل أموالها؛ ومن ثم أُصيبت بمرض نفسي.

نهض "دون هوانج" واقفاً وقال:

- هذا أمر وارد.

أخذ يحدِّق في النافذة العلوية لشقتها قائلاً:

- هلا تفاءلت قليلاً؟ مرة تقولين مرض نفسي، ومرة تقولين عشيقة لأحد الأثرياء الفاسدين.

- وما المشكلة في أن تكون عشيقة لشخص ثري؟ كم من الفتيات يبحثن عن مثل هذه الفرصة.

شَعَرَ "دون هوانج" أنها فتاة عديمة المشاعر، وفَضَّلَ أن يلتزم الصمت وألا يجادلها في هذا الموضوع الذي لا جدوى من الحديث عنه. لاحظت "تشي باو" أنه يحاول تجاهلها، ومن ثم تجاهلته هي الأخرى، وساد الصمت بينهما.

أخذا سيارة أجرة عائدين إلى "وي شيو يوان"، وبينما كانا على مقربة من وادي السيليكون، طلبت "تشي باو" أن يشتري لها الزبادي. وافقها

"دون هوانج" وطلب من السائق أن يتوقف أمام مدخل متجر "تشاوشي فا". نزلا من السيارة وبدا كأنهما تصالحا.



13



في تلك الليلة، راوده الحلم نفسه الذي حلم به المرة السابقة. كانت "شياو رونج" تصرخ وتنادي باسمه من أعلى كوبري المشاة ثم تهوي من أعلى الكوبري. كان يرى الحلم بكل وضوح، كمشهد بطيء في أفلام السينما، بطيء لدرجة أنه لم يتمكن من الإمساك بها. وعندما كانت على مقربة من الأرض، تبدل وجهها إلى وجه تلك الفتاة الغامضة التي تقطن في منطقة "تشي تشون لي". استيقظ "دون هوانج" من نومه ينتابه شعور غامض بالفزع، فلم يكن من ذلك النوع الذي يؤمن بالخرافات، ولكن إغلاق الشقة التي كانت تقطنها تلك الفتاة في "تشي تشون لي" جعلته شارد الذهن. فهذا الحلم به بعض الشكوك والريبة. وعندما استيقظ في صباح اليوم التالي قَرَّرَ أن يتصل بـ"شياو رونج" دون مبالاة بما سيحدث بعد ذلك.

بدا صوتها غريباً بعض الشيء، وما لبث أن أصبح مألوفاً له. سألته قائلة:

- هل حدث شيءٌ ما؟

فقد أرادت أن تضع زمام المبادرة بيده هذه المرة. ماطلها "دون هوانج" قليلاً قبل أن يقول:

- أريد فقط أن أُخبرك أنى قد عثرت على "تشي باو".

- خبر جيد، أنا سعيدة لذلك، عليك أن تأتيني بها لكي أراها، أريد أن أراها اليوم.

قرر "دون هوانج" أن يدعوها إلى تناول الطعام في مطعم "قو لاو دا" للقدر الساخن. لم تكن "تشي باو" تريد الذهاب معه، ولكنه حاول أن يقنعها كثيراً بالذهاب معه حتى وافقت.

جلسا على الترابيزة نفسها التي جلس عليها "دون هوانج" و"شياو رونج" في أول مرة تقابلا فيها. وعندما دخلت "شياو رونج" وشاهدتهما يجلسان سوياً أذهلها جمال "تشي باو". دخل "كوانج شان" خلفها، ولم يُدَقِّق في ملامح "تشي باو" إلا عندما اقترب منها، ثم أشار إليها بإصبعه متسائلاً:

- أنا أعرفك.. تقابلنا قبل ذلك.

نهضت "تشي باو" واقفة وقالت:

- نعم.. تذكرتك، لقد تناولنا الطعام معاً قبل ذلك.

- صحيح صحيح، وكان هناك مجموعة من الأصدقاء، نسيتُ أسماءهم، يبدو أن مدينة بكين ليست كبيرة كما كنا نتخيل، فها نحن نلتقي ثانية.

سألت "شياو رونج" "دونج هوانج" قائلة:

- هذه هي "تشي باو"؟ إنها حقاً شابة وجميلة.

قالت "تشي باو":

- كيف حالك يا أخت "شياو رونج"، "دونج هوانج" دائماً يمتدحك.

ضحكت "شياو رونج" قائلة:

- يمتدحني؟ ما الذي يستدعي المدح وقد أصبحت كبيرة في السن؟

قال "دون هوانج":

- ومن قال إنك كبرت في السن؟

قالت "تشي باو":

- أنتِ الآن في السن المثالي الناضج الذي يحبه الرجال، فكيف تقولين إذن أنكِ كبرت في السن؟

قالت "شياو رونج":

- إذا لم أكن قد كبرت في السن، فلماذا يرفضني إذن؟

أشارت "تشي باو" بإصبعها إلى "كوانج شان" قائلة:

- أنت مخطئ إذن، تترك ما في يدك وتنظر لما في يد الآخرين.

- ومن قال ذلك، أنا لم أنظر قط لما في يد الآخرين، هذا غير صحيح بالمرة.

حينها نادى "دون هوانج" على عامل المطعم ليطلب الطعام.

اشتعل القدر، وتسبب البخار المتصاعد في حجب الرؤية بين "كوانج شان" و"شياو رونج". وبالرغم من أنهم كانوا يفضلون الصمت إلا أنهم

بادروا بالخوض في الحديث مع بعضهم حتى لا يبدو الوضع مملاً. بادر "دون هوانج" "كوانج شان" بالسؤال عن أحوال بيع الأسطوانات، فيما بادرت "شياو رونج" "تشي باو" بالسؤال عن أحوال معيشتها في بكين، ثم تطرقا إلى الحديث عن مستحضرات التجميل والمأكولات الخفيفة، وشيئاً فشيئاً أصبح الجو ودوداً أكثر مما كانوا يتوقعون. غير أن "كوانج شان" استأذن في المغادرة قبل الانتهاء من تناول الطعام بذريعة أنه مشغول وعليه العودة إلى المتجر. ألح عليه "دون هوانج" في البقاء إلا أن "شياو رونج" طلبت منه ألا يُلح عليه وأن يتركه يذهب. حاولت أن تُغَيِّر دفة الحديث. سألت "تشي باو" إذا ما كانت تحب تناول شرائح التوفو. بدت السمات الطفولية تظهر على ملامح "تشي باو" أثناء تناولها الطعام، حيث كانت تأكل بنهم وتنتقي الطعام الذي تحبه. وبينما هي كذلك، رن جرس تليفونها خرجت من المطعم لتجيب على المكالمة التي استمرت سبع أو ثمان دقائق، ثم عادت لتخبرهما أن اليوم هو عيد ميلاد أحد أصدقائها وأن عليها أن تذهب الآن.

قال "دون هوانج":

- ألا يمكنك الذهاب بعد الانتهاء من تناول الطعام؟

- لا يمكنني أن أتأخر.

مررت يدها على شعر "دون هوانج" قائلة:

- المرة المقبلة سوف أدعو الأخت "شياو رونج" لتناول الطعام على حسابي، ما رأيكم؟

قالت "شياو رونج":

- أوكي، اذهبي إذن حتى لا يفوتك حفل عيد الميلاد، فأمامنا فرص كثيرة نلتقي فيها بعد ذلك.

فجأة لم يتبقَ سوى "دون هوانج" و"شياو رونج". قال "دون هوانج" مغتاظاً:

- الجميع مشغولون إلا أنا الوحيد العاطل، لنستمر في تناول طعامنا إذن.

قالت "شياو رونج":

- لا عليك، لنطلب زجاجتين من البيرة، لقد مر وقت طويل منذ آخر مرة رأيتك فيها تشرب الخمر.

ظل "دون هوانج" يشرب كأساً تلو الآخر في صمت حتى حلت الساعة الحادية عشرة، بعدها غادرا المطعم وأوصلها إلى مسكنها، حيث أخبرته أن "كوانج شان" مشغول في أعمال المتجر هذه الأيام ويبيت هناك وطلبت منه أن يصعد معها ليشرب بعضاً من الماء. صعد "دون هوانج" معها إلى شقتها.

لم يكن هناك الكثير من الأسطوانات داخل غرفتها كما كان الحال قبل ذلك، أخبرته "شياو رونج" أن "كوانج شان" أخذ جميع الأسطوانات إلى المتجر. في تلك الأثناء بدأ "دون هوانج" يشعر بالدوار بسبب الخمر الكثير الذي شربه.

قالت "شياو رونج":

- "تشي باو" فتاة رائعة.

نظر إليها "دون هوانج" قائلاً:

- شكراً.

التفتت "شياو رونج" بوجهها لتلتقط وعاء الماء الساخن قائلة:

- نسيت أن أصب لك الماء.

التقطت الكوب الذي اعتاد "دون هوانج" أن يشرب منه عندما كان يأتي إلى شقتها، ووضعت فيه بعض أوراق الشاي. صبت عليه الماء الساخن وناولته له وهي تقول:

- إليك بعض من الشاي المركز سيساعدك في التخلص من اثار الكحول.

مد "دون هوانج" يده ليس ليمسك بالكوب ولكن ليمسك بيد "شياو رونج". جذبها إليه ليسقط الكوب من يدها وترتمي في أحضانه. قالت "شياو رونج":

- لا ينبغي عليك فعل ذلك.

- ما هذا الذي لا ينبغي على فعله؟

لم يفعل "دون هوانج" أي شيء سوى أنه احتضنها قائلاً:

- لقد راودني كابوس مفزع حيث شاهدتك تسقطين من أعلى كوبري المشاة تماماً كقطعة من القماش.

قالت "شياو رونج" بصوتٍ خفيض:

- حياتي على ما يرام، لماذا أموت إذن؟

أحاطت رأس "دون هوانج" بيدها وضمته إلى صدرها، حينها شعر "دون هوانج" بالدوار أكثر من ذي قبل. أحاطها هو الآخر بيده وطرحها على الفراش.

طلبت منه "شياو رونج" أن يتوقف قائلة:

- لقد أصبحت...

كانت تقصد أن تقول إنها أصبحت حاملاً.

قاطعها "دون هوانج" قائلاً:

- وأنا أيضاً.

يقصد أنه أصبح له حبيبة وهي "تشي باو".

بدأ يقبلها في المنطقة ما بين ذقنها ورقبتها، حيث كانت هذه المنطقة هي نقطة ضعفها. لم تكن مقاومتها سوى صوت يبدو كأنين البكاء مكتوم داخل حنجرتها، وشيئاً فشيئاً فتحت له ذراعيها وساقيها وأخذت تنكمش وترتجف. وعندما تمكن منها "دون هوانج"، اختفي صوتها تماماً. كانت هادئة في ممارسة الجنس على خلاف "تشي باو" التي كانت شرسة وعنيفة.

عندما اعترتها النشوة وأخذت تعض بأسنانها على الوسادة، شعر "دون هوانج" هو الآخر أنه على وشك الانتهاء. وبينما كان مستمراً في مضاجعتها، حاول فتح خزانة الملابس بجوار السرير لإخراج الواقي الذكري، فقد جرت العادة بينهما أن يرتدي "دون هوانج" الواقي الذكري عندما يكون على وشك القذف، حينها فكت "شياو رونج" أسنانها من على الوسادة قائلة:

- لا داعي لذلك، فأنا حامل.

توقف "دون هوانج" وقد وعي تماماً كلامها هذه المرة.

- أنا حامل الآن، اكتشفت ذلك منذ يومين فقط.

تسمر "دون هوانج" في مكانه دون أن يحرك ساكناً، ولمع في ذهنه فجأة اسم "كوانج شيا". تراجع تدفق الدم في ذلك الجزء أسفل جسده، تماماً كالماء الذي يتناقص بسرعة من الكوب أثناء شربه. وبدأ يفقد الإحساس تدريجياً، وشيئاً فشيئاً فقد ذلك الجزء هيئته وحجمه إلى أن انقطع الاتصال الجنسي بينهما في النهاية.

كانت أصوات السيارات في الخارج تمر عبر النافذة. دوى صوت انفجار في مكان ما قريب أدى إلى انطلاق أصوات إنذار السيارات الموجودة أسفل المبنى. بعد ذلك، اختفت جميع الأصوات، وساد الليل سكون أشبه بسكون المنبه الذي لا يسمع منه سوى صوت حركات العقارب.

- لم يكن ينبغي عليّ أن اتركك تصعد معي إلى هنا.
- وما الذين تنوين فعله؟
- وما الذي يمكنني فعله؟
- هل ستبقين على هذا الطفل؟
- طبعاً سأبقيه، لا يمكنني إجهاضه، فهو طفلي من لحمي ودمي.
- ثم تتزوجين وتنجبين وتعيشين في بكين؟
- فلنترك الأمور تأخذ مجراها، ليس لي الآن في هذه المدينة سوى هذا الطفل الذي ينمو في أحشائي.

تَذَكَّر "دون هوانج" فجأة أولئك النسوة اللاتي يبعن الأسطوانات المقلدة والهويات المزيفة، يحملن أطفالهن ويعترضن المارة ليسألونهم هل من أحد يشتري أسطوانات أو في حاجة إلى تزوير أوراق؟

ارتدت "شياو رونج" الروب وذهبت إلى دورة المياه. كان الروب مائلاً على كتفها، حيث بدت من الخلف كشخص وحيد منعزل. شعر "دون هوانج" أنها ليست ذاهبة إلى دورة المياه، بل بدت له وكأنها ذاهبة إلى الشارع، تحمل طفلها على يده وتضمه إلى صدرها. تجلس على الرصيف وتخرج ثديها الأبيض الممتلئ من فتحة ملابسها العلوية وتدسه في فم طفلها لكي يكف عن البكاء.

أشعل "دون هوانج" سيجارة. خرجت "شياو رونج" من دورة المياه وقد عدلت من ملابسها ومشطت شعرها. طلبت منه أن يكف عن التدخين حتى لا يضر ذلك بصحة طفلها. انصاع لرغبتها وأطفأ سيجارته على الأرض. فكر أنه ربما لن تكون الأمور بهذا السوء. فمن يدري، ربما سوف تجلس في متجر "العالم" للأسطوانات حسنة المظهر مهندمة الثياب تبتسم للزبائن وهم يشترون الأسطوانات وتقوم بِعَدّ المال في نهاية اليوم.

استأذنها "دون هوانج" في المغادرة بذريعة أنه يرغب في التدخين، ولكنه لم يعد. بعدما نزل إلى أسفل المبنى، نظر إلى تلك النافذة الوحيدة المضيئة، ولم يكن هناك أحد يطل منها. فَكَّرَ "دون هوانج" في نفسه قائلاً، "هذا جيد، بل هذا أفضل".



14



حَلَّ الربيع أخيراً، ولكنه في مدينة بكين قصير للغاية، تماماً كشخص مر بجوارك بينما تتثاءب. فمن يدري ربما ارتفعت درجة الحرارة في اليوم التالي إلى السابعة أو الثامنة والعشرين درجة مئوية بينما لا يزال البعض يرتدون ملابسهم الشتوية. العلاقة التي كانت حميمة في بدايتها بين "دون هوانج" و"تشي باو"، بدأت تفتر شيئاً فشيئاً، وصار كلاهما يستعيد حالته السابقة، ويكد سعياً وراء لقمة عيشه. لم توافق "تشي باو" على الانتقال للعيش معه، وطلبت منه أن يكف عن إرغامها على ذلك وإلا قطعت علاقتها به. ولذلك استمر "دون هوانج" يعيش في غرفته الصغيرة بمنطقة "وي شيو يوان". كانت الغرفة مريحة بالنسبة له، فلم يكن عليه أن يستيقظ في منتصف الليل للذهاب إلى دورة المياه العمومية. كل ما عليه هو أن يتبول خلف الشجرة الكبيرة في الفناء وينتهي الأمر. ومن المؤكد أن هناك علاقة بينه وبين اخضرار أوراق هذه الشجرة من جديد.

كان "دون هوانج" قد أعطى "تشي باو" نسخة من مفتاح الغرفة،

بحيث يمكنها أن تأتي وقتما تشاء. فبخلاف الأوقات التي يكونا قد تواعدا فيها مسبقا، كانت "تشي باو تأتي الى الغرفة عندما تشعر بالملل، تحضر معها بعض المأكولات الخفيفة وتشاهد الأفلام في انتظار عودة "دون هوانج". كانت أحياناً تغسل له ملابسه، وتهدر الكثير من المياه، وهو ما تسبب في إثارة حنق صاحبة السكن، لأن الايجار كان يشمل مصاريف المياه والكهرباء. لم تكن صاحبة السكن تخاطبها مباشرة في هذا الأمر، بل كانت تلمح قائلة:

– تستغرقين كل هذا الوقت لتغسلي قطعتين فقط من الملابس.. اعتقدت أنك تغسلين عشر قطع أو أكثر.

ما إن سمعت "تشي باو" كلامها حتى فهمت ما تهدف إليه، ففي بداية قدومها إلى بكين كانت تستأجر غرفة أسوأ من هذه، وكانت صاحبة الغرفة تطلب منها دائماً أن تستبدل المصباح الكهربائي في الغرفة بآخر أصغر حتى تُقَلِّل من استهلاك الكهرباء، ودائماً ما كانت تقول لها ألا تصدق أولئك الذين يقولون إن طباخة الأرز الكهربائية يمكنها طهو الأرز بطريقة أفضل، فلا يوجد أفضل من مواقد الغاز. وتطلب منها أن تشتري واحداً. إلا أن "تشي باو" كانت تُصِرّ على ألا تُغَيِّر المصباح أو تشتري موقداً، وبعد سته أشهر طردتها صاحبة السكن.

اغتاظت "تشي باو" من بخل هذه السيدة فقالت لها:

– أيتها الخالة، ربما لا تعلمين أن "دون هوانج" شاب فقير يكد من أجل لقمة عيشه، وليس لديه سوى هاتين القطعتين من الملابس يلبسهما بالتناوب، وقد صارتا متسختين كملابس الحدادين، ولا بد من غسلهما

لوقت أطول حتى تنظف، وكذا هو الحال بالنسبة لملاءة السرير والغطاء.

فتحت صاحبة السكن فمها واتسعت حدقتاها قائلة:

- هل تنوين غسل ملاءة السرير والغطاء كذلك؟ في هذه الحالة لن تكفيك مياه نهر "اليانجتسي" بأكملها، وسوف يتوقف عداد المياه عن الدوران.

ثم تنهدت قائلة:

- كم هو محظوظ "دون هوانج" أن تكون له حبيبة مثلك.

قالت "تشي باو" مزهوة:

- أنتِ تبالغين في الإطراء أيتها الخالة، فأنا ماهرة فقط في غسل الملابس، ومادام هناك ماء كاف للغسيل فالأمر أسهل بكثير بالنسبة لي.

ما إن غادرت "تشي باو" حتى أخذت صاحبة السكن تتجول في الفناء تفكر في كيفية رفع قيمة الإيجار. وذهبت لترى قراءة عداد المياه وعادت إلى الغرفة لتجد مصباحها مشتعلاً، كان "دون هوانج" قد عاد من عمله. دفعت الباب بيدها ومرقت إلى الداخل فوجدت أكواماً من الأسطوانات. أشارت بيدها على كومة الأسطوانات الموضوعة على السرير وصاحت متعجبة:

- يا إلهي، ما هذا؟.

أجابها "دون هوانج" قائلاً:

- هذه أفلام، لا بل أسطوانات، أسطوانات مقلدة.

- ومن أين لك بها؟

- اشتريتها؟

- ولماذا تشتري كل هذه الكمية من الأسطوانات المقلدة؟

- كي أبيعها.

أشارت إليه بإصبعها قائلة:

- إذن أنت تبيع الأسطوانات المقلدة، تمارس عملاً غير قانوني!

قاطعها "دون هوانج" قائلاً:

- أيتها الخالة، من قال إن هذا عمل غير قانوني. الشوارع مليئة بباعة الأسطوانات المقلدة، وكذلك هو الحال بالنسبة لمحلات بيع الأفلام.

- بيع الأسطوانات المقلدة مُخَالِف للقانون، لا تحاول خداعي، أنا سكرتيرة سابقة في الحزب وأفهم القانون جيداً، كما أنك خدعتني حين قلت إنك طالب في الجامعة.

- أنا لم أقل ذلك، بل أنتِ من قال ذلك وأنا لم أؤكد أو أنفي.

- كيف أكون أنا من قال ذلك، إن لم تكن أنت الذي أخبرني بهذا الأمر؟

لم يكن "دون هوانج" يريد أن يخوض معها في جدال لا فائدة منه، أخذ يلملم أسطواناته وقال لها:

- أوكي، أنا أبيع الأسطوانات المقلدة، ماذا تريدين مني الآن؟

- أوكي، سأقولها لك صريحة، لا يمكنني أن أؤجر غرفة في فناء بيتي لبائع أسطوانات مقلدة بمبلغ زهيد لا يتعدى اربعمائة وخمسين يواناً في الشهر، فماذا لو علمت الشرطة بهذا الأمر، أنا سكرتيرة سابقة في الحزب وأهتم كثيراً بسمعتي.

- أوكي، وكم تطلبين زيادة على هذا المبلغ إذن؟

- مائة يوان أخرى.

نظر إليها "دون هوانج" وطرق بيده على زجاج النافذة قائلاً:

- أيتها الخالة، مدة الإيجار لم تنتهِ وأنتِ تريدين رفع الإيجار بهذه الطريقة، أين العدل والإنصاف إذن؟ يمكنك أن تخرجي الآن قبل أن يحل الظلام وتعايني هذه الغرفة من الخارج، هل تستحق هذا المبلغ أم لا، إن كانت تستحق، سأعطيك المبلغ الذي تطلبين.

صاحبة السكن كانت بالفعل سكرتيرة سابقة عن الحزب وتعرف كيف تغير من دفة الحوار، قالت له:

- أنا لا أكترث للمال، كل ما أكترث له هو سمعتي، لا يمكنني أن آوي شخصاً يقوم بأعمال مخالفة للقانون في بيتي، وإن كنت تشعر أن الإيجار مرتفع يمكنك أن تبحث عن مكان آخر. هذا المكان قريب من الجامعة ومنطقة "تشونج قوان تسون"، وسأجد مستأجراً جديداً على الفور.

- لا تخدعي نفسك، لن يأتي أحد من الطلاب لاستئجار هذه الغرفة. الجامعة حالياً تبني الكثير من المساكن للطلاب. هم يسكنون في مبان جديدة ولا يكلفهم ذلك سوى ألف وعشرين يواناً فقط في العام، والمباني السكنية المحيطة في منطقة "وان ليو" التي كانت تكتظ بالطلاب في السابق أصبحت الآن فارغة إلا من الهواء.

- أنت تحاول خداعي.

- أنا على وشك خوض امتحان الدكتوراه بجامعة بكين، ومن الطبيعي أن أكون على دراية بمثل هذه الأمور. على أي حال سأزيدك خمسين يواناً، إن وافقتِ سوف أستكمل مدة الإيجار، وإن لم توافقي سأبحث عن سكن جديد بداية من الغد.

غادرت صاحبة الغرفة المكان، ولكنها عادت بعد قليل لتطرق الباب. طلب منها "دون هوانج" أن تدخل، قالت:

- لن أدخل، وقد اتصلت بابنتي حالاً لأتشاور معها بشأن هذا الأمر. طلبت مني أن أترأف بحالتك لأنك شاب غريب ومكافح، لن أدقق معك في الزيادة، لتكن خمسين إذن، ولكن عليك أن تتذكر أنك ستدفع الزيادة بداية من الشهر المقبل.

تمتم "دون هوانج" قائلاً:

- يا لكِ من شمطاء بخيلة.

- ماذا قلت حالاً؟

- قلت لا توجد مشكلة.

أخبر "دون هوانج" "تشي باو" بهذا الأمر، فقالت له:

- لو كنت مكانك ما كنت لأوافق على هذه الزيادة، ما المشكلة في أن أبحث عن مكانٍ جديد، بكين مدينة كبيرة للغاية، والبحث عن مكان يتسع لسرير واحد ليس بالأمر الصعب! اللعنة على هذه الدنيا، متى أصبح غنية وأشيد مئات من المباني الشاهقة التي لن يقل ارتفاعها عن خمسين طابقاً، وأقوم بتأجيرها وأجلس في بيتي أجمع أموال الإيجار.

قال "دون هوانج":

- وفي حال عدم تمكنك من عد أموال الإيجار أساعدك أنا في عدها.

- أرى أنك لا تصلح إلا لمثل هذ العمل، تجلس في البيت وتُحصي النقود، يا لك من شخص عديم الفائدة. كنت أنتظر منك أن تقول: يا فتاتي، اجلسي أنتِ في البيت وأنا أذهب لكسب المال من أجلك.

اعتدل "دون هوانج" في جلسته قائلاً:

- لم تعرفي ذلك إلا الآن؟

ضربته بيدها على ظهره، نظر "دون هوانج" إليها قائلاً:

- هذه ضربة مؤلمة.

- انظر إلى نفسك، ضربة صغيرة على ظهرك جعلتك تبدو مثل شخص أحمق، تبدو كمن يحمل هموم الدنيا كلها على ظهره.

بدا "دون هوانج" وكأنه استفاق من غيبوبته فجأة، الشعور نفسه الذي كان ينتابه عند تعرضه للسعة "الدبور" عندما كان صغيراً. نعم هي محقة، منذ متى وأنا بهذه الحالة، مهموماً كشخص يحمل هموم العالم كلها على عاتقيه، أين هي روح العزيمة والإصرار التي كانت تحيط بي عندما خرجت من السجن؟ وقتها كنتُ لا أبالي لما قد أواجه من صعوبات، إن لم أجد مكاناً أنام فيه يمكنني أن أنام أسفل الكباري، وإن لم أجد طعاماً آكله يمكنني أن أتسول، فالتسول ليس جريمة. أين القرار الذي اتخذته بأن أقضي حياتي يوماً بيوم دونما اكتراث لما يُخبئه المستقبل؟

في الماضي لم تكن النساء تعني شيئاً بالنسبة له، إن استطاع الإيقاع بإحداهن فعل، وإن لم يستطع فلا غضاضة. وما دام يعيش أيامه بالشكل الذي يريد دون قيود من أحد، فحياته في أفضل أحوالها. أما الآن، فلماذا أصبح مهموماً إلى هذا الحد؟ كيف أصبحت حياته معقدة إلى هذه الدرجة؟ سحقاً!

ضربته "تشي باو" بيدها على وجهه، قائلة:

- اللعنة، شرد ذهنك ثانيةً، ماذا دهاك؟ حقاً لا أدري ما الذي يعجبني

فيك، فأنت إما شارد الذهن أو فاقد للنطق كالمعتوه، عد إلى رشدك!
- أريد أن أذهب لزيارة "باو دينج".
- يمكنك أن تذهب وقتما تشاء، لا داعي للاستئذان.
- هل تأتين معي؟
- لا.
أخذت تلبس حذاءها الرياضي وقالت:
- ماذا تريد مني أن أقول له؟ أخبره أنى أنام معك طول هذه المدة؟
- لا تأتي إذن.
- أوكي، لن آتي.

بحلول المساء ذهبا معاً إلى القصر الصيفي القديم. دخلا خلسة بالقفز من على سور في أحد الأزقة المجاورة للقصر. كانا قد قاما بهذا الفعل مع بعض أصدقائهم منذ عدة أيام، ومكثوا بالداخل نصف ساعة ثم غادروا المكان. إلا أن هذه التجربة لم تكن كافية لإشباع رغبة المغامرة لدى "تشي باو"، وهو ما جعلها تطلب من "دون هوانج" أن يذهب معها ليكررا التجربة مرةً أخرى. حملها بيديه من الخلف ليساعدها على تسلق السور، وتسللا إلى الداخل. ما كادا يصلان إلى بحيرة "فو هاي" حتى سمعا أصوات نقيق الضفادع. قالت "تشي باو":
- يا له من مكان ضخم، هؤلاء الملاعين الذين عاشوا في عصر إمبراطورية "تشينج" كانوا يعرفون حقاً كيف يستمتعون بحياتهم.
كان الهدوء يعم المكان. هبط الظلام على أنحاء القصر وكأنه ستار

أسود أُلقى على سطح البحيرة. فيما أخذت "تشي باو" تجري في الأرجاء بجرأة أصابت "دون هوانج" بالذهول. أخذت تتقمص دور المرشد السياحي وتشرح له تفاصيل المكان قائلة:

- في هذا المكان ماتت إحدى فتيات القصر، وفي ذاك المكان تم إعدام أحد الخصيان.

بدا المكان وكأنه ملئ بالأشباح. وعندما اقتربا من أطلال النافورة الكبيرة، شعر "دون هوانج" بالقشعريرة تسري في جسده، بينما كانت "تشي باو" تمرح هنا وهناك دون مبالاة، تختبئ بين الأطلال والجدران البالية تقلد أصوات الطيور الغريبة. كانت الأصوات التي تصدرها مثيرة للفزع بدرجة تفوق الفزع الذي يثيره نعيق الغربان. بعدما انتهت من تقليد أصوات الطيور أخذت تضحك بصوتٍ عالٍ. طلب "دون هوانج" منها أن تخفض من صوتها حتى لا يكتشف أفراد الأمن المسئولين عن القصر وجودهما. بعد ذلك شعرت "تشي باو" بالإرهاق، فاستلقت على صخرة كبيرة، وطلبت من "دون هوانج" أن يستلقي هو الآخر بجوارها. قالت له:

- لو لم تكن هذه الصخرة باردة لنمت هنا ثم خرجت في الصباح من البوابة الرئيسية وكأني أحد السياح الزائرين.

- نعم فكرة صائبة.

ومال بجسده فوق جسدها.

- لا تكن متهوراً.. هذا المكان غير مناسب.

- أنا بالفعل أريد أن أتهور، ولكن برودة الجو تمنعني من ذلك.

- أريد أن أطلب منك شيئاً.
- اطلب كما تشاء مادام الأمر لا يتعلق بالمال.
- نحن الآن بمثابة زوجين، وعليكِ أن تحفظي ماء وجهي، أُريد أن أقترض منك بعض المال، وأنا كرجل أتعهد أن أُعيده إليكِ ثانيةً.
- الرجال لا يقترضون أموالاً من أحد.
عانقته ونظرت في عينيه قائلة:
- دعك مما تفكر فيه، قلت لك من قبل، عليك أن تنسى أمر "باو دينج". لو كان إنقاذه يتطلب عدة آلاف من اليوانات لدفعتهم بدلاً منك، ولكن الأمر ليس بهذه السهولة.
- ولكن عليّ أن أجد سبيلاً لإنقاذه، لا يمكنني أن أقف هكذا مكتوف الأيدي اشاهد شخصاً آخر محبوساً بدلاً مني.
- محبوساً بدلاً منك؟ لا تكن بهذه السذاجة، فكل من يعمل بهذه المهنة يعلم جيداً أن مصيره السجن عاجلاً أم آجلاً.
- لا جدوى من الجدال معك في هذا الأمر.
ثم فك يده من يدها واستدار بجسده قائلاً:
- أنتم النساء لا تفهمون كيف يفكر الرجال.
- أنتم الرجال خرجتم من رحم النساء، ما هي أموركم التي يصعب علينا نحن النساء فهمها إذن؟ أنت نموذج لأولئك الذين يفكرون بطرق بدائية. لا أفهم لماذا لا تدخر المال تعطيه له بعد خروجه؟ فحينها سيكون في حاجة للمال أكثر من الآن.
استدار "دون هوانج" بجسده ليحتضنها ثانيةً. قال:

- عزيزتي، أنتِ فعلاً مُحِقَّة. فحينما خرجت من السجن، كنتُ في حاجة إلى المال، وكنت أفكر بتلك الطريقة أيضاً.

دفعته "تشي باو" بيدها قائلة:

- اغرب عن وجهي.

استطردت قائلة:

- جئت إلى بكين في سن الثامنة عشرة، في أي مكان كنت تلهو حينها؟

- كنت أذاكر لأنجح في الامتحانات، وتحديداً الصيغ الكيميائية، الهيدروجين مع الأوكسجين يكون الماء.

- كان ينبغي عليك أن تصير أستاذاً جامعياً.

- نعم كنت أفكر هكذا أيضاً، ولكنهم لم يقبلوني.

ضحكت "تشي باو" قائلة:

- أنت شخص مغرور.

ضحك "دون هوانج" هو الآخر قائلاً في نفسه، "هذه الفتاة اللعينة وُلِدَتْ من رحم جنية وليست امرأة عادية، لا شك في هذا".



15



اشترت له "تشي باو" ملابس جديدة، فبدا وسيماً ومُهندماً. قالت له:

- أريدك أن تبدو وسيماً ومُهندماً حتى لا يسخر منك حرس السجن عند زيارتك لـ"باو دينج".

اشترى هو الآخر لـ"باو دينج" كمية كبيرة من السجائر والقليل من الطعام، لأنه لا يوجد مكان لحفظ الطعام داخل السجن. كما اشترى له بعض الأدوية الشائعة، فهو يعلم أن "باو دينج" لديه بعض المشاكل في المعدة. بالإضافة إلى ذلك أخذ معه بعض المال ليعطيه لحرس السجن وفقاً للتعليمات التي سيمليها عليه "باو دينج". لم يكن متأكداً إذا ما كان "باو دينج" لا يزال مُحتجزاً في المكان القديم نفسه أم لا. إذا كان قد انتقل إلى مكان آخر فعليه أن يُغَيِّر وجهته.

لم يعد حرس السجن يتذكرون "باو دينج"، ولم تكن هناك حاجة لأن يُعَرِّفهم بنفسه. أعطى الحارس الأول علبتين من السجائر، الذي اصطحبه

إلى مدير السجن. وأعطاه "باو دينج" هو الآخر المزيد من السجائر. اطلع "دون هوانج" على سِجل المساجين وعرف أن "باو دينج" لا يزال موجوداً. ذهب بصحبة الحارس مخترقين العديد من الردهات. لم يكن هذا المكان غريباً بالنسبة له، فكل شيء كما كان منذ بضعة شهور، حتى ملامح وتعبيرات وجوه الحراس لا تزال كما هي. بل إن أثر الحذاء الموجود على الجزء العلوي من الحائط في نهاية الردهة لا يزال موجوداً. ولا يزال الحُرَّاس المناوبون أعلى السجن ثابتين في مواقعهم يحتضنون بنادقهم. سمع "دون هوانج" أصوات المارش الصادرة من حناجر وأقدام الحرس، كانت أصوات أقدامهم أشبه بأصوات أعداد غير محدودة من السكاكين التي تقطع الخضراوات في وقت واحد. حينها كان قادراً على تمييز هذا الصوت بدقة من خلال الصمت المطبق داخل السجن. لم يكن قادراً على فعل ذلك في الماضي، ففي ذلك الوقت كان إمَّا محبوساً في زنزانته يُخَيِّم عليه الصمت، وإمَّا منخرطاً في فريق عمل تقطيع الخضراوات. كل ما يمكنه سماعه هو أحد الشيئين: إمَّا الصمت المطبق وإمَّا صوت تقطيع الخضراوات.

اصطحبه الشرطي إلى إحدى الغرف، وطلب منه أن ينتظر هناك قليلاً.

جلس "دون هوانج" على كرسي كان موجوداً بجانبه. الغرفة كانت تحتوي على شبكة حديدية وزجاج سميك نصف شفاف. شاهد مثل هذه الأشياء من قبل في أحد المسلسلات التليفزيونية. بعد قليل سمع صوت أحدهم يقول:

– ادخل.

ثم شاهد "باو دينج" يدخل من باب موجود خلف الشبكة الحديدية، وقد بدا عليه الهزال.

نهض "دون هوانج" واقفاً وهو يقول:

- كيف حالك يا رفيق؟

- حينما أخبروني أن شخصاً ما جاء لزيارتي خمنت أنه أنت.

جلس وهو يبتسم ولكن ما لبث أن توقف. كانت هناك العديد من البقع الزرقاء الداكنة تعلو وجهه، وآثار تجمعات دموية بجوار عينه. قال:

- لبسك رائع، هل اشتريته حديثاً؟ أعرف أنك دائماً تحب الاعتناء بمظهرك.

قال "دون هوانج" وهو ينظر إلى الحارس الذي يقف على بعد خمسة أمتار منهما:

- ماذا حدث لوجهك؟

- لا شيء، استفزني أحدهم بالداخل ولم أتمالك نفسي فتشاجرت معه.

- وكيف حال يدك اليسرى؟

- تعافت من فترة، وإلا فكيف لي أن أتشاجر مع هؤلاء الصعاليك بالداخل!

- كنت قلقاً ألا أجدك هنا.

- أعتقد أنهم على وشك أن ينقلوني من هنا، فمن غير الممكن أن يحتجزوني في مركز الاحتجاز هذا لأكثر من سبعة أشهر. أخبرني أنت عن أحوالك.

قال "دون هوانج" بصوتٍ منخفض ورأس منحني:

- أحوالي جيدة، أبيع الأسطوانات المقلدة، ولكني لم أتمكن من جمع

المال الكافي.

- لا تكن أحمقاً، قلتُ لك مسبقاً ألا تفكر بهذا الأمر، أنا أعرف جيداً إلاما ستؤول الأمور. في أسوأ الأحوال سيُحكم عليّ بالحبس مدة سنة ونصف ثم يُفرج عني. الموضوع أبسط مما تتخيل، أنا هنا آكل وأشرب وأنام.. اعتن أنت بنفسك جيداً. وفي حال كان لديك متسع من الوقت احضر لي بعضاً من السجائر.

- أحضرت لك السجائر وبعض الأطعمة والحاجات الشخصية وأدوية المعدة.

- أوكي، هذه كلها أمور لا تهم، اخبرني إذن هل عثرت على "تشي باو" أم لا؟

- نعم عثرت عليها، هي من ساعدتني في شراء هذه الأشياء، وهي مَنْ اختار لي هذه الملابس. إلا أنها مشغولة هذه الأيام ولهذا لم تأتي معي لزيارتك.

قال "دون هوانج" هذه الكلمات ونظر إلى نقطة سوداء صغيرة أعلى الحائط الزجاجي، مُحدثاً نفسه أن هذه النقطة السوداء ربما كانت برازاً لذبابة منذ عام مضى. سمع صوت الصمت المطبق ذاته الذي كان يسمعه من قبل. قاطعه صوت "باو دينج" وهو يقول:

- وكيف أحوالها إذن؟

- بخير.

ابتسم "باو دينج" نصف ابتسامة وتوقف كما فعل في المرة الأولى. مسح بيده على وجهه قائلاً:

- دعك من هذا الأمر، الأهم الآن هو أن تجتهد لكسب المال.

- سأفعل.

- تذكر أنه مهما حدث؛ عليك أن تكون قوياً ولا تجعل أي شيء ينال من عزيمتك.

- نعم، سأفعل.

ثم طلب "باو دينج" منه أن ينصرف.

لم تستغرق هذه المقابلة طويلاً. انتهت قبل الموعد المحدد لانتهاء الزيارة. نظر "دون هوانج" إلى "باو دينج" أثناء مغادرته بصحبة الحارس بخطى مثقلة، وقال له بلا مبالاة:

- اذهب أنت واعتني بنفسك جيداً.

ظل "دون هوانج" يحدق في الردهة الفارغة خلف فتحة الباب الضيقة، وهو يلعن "تشي باو" ويقول مكرراً:

- "تشي باو".. أيتها اللعينة. أنتِ حقاً خرجتِ من رحم جنية، أنتِ حقاً خرجتِ من رحم جنية.

وحينما سمع صوت الحارس يطلب منه المغادرة، أدرك أنه لا يزال يجلس في حجرة الزيارة داخل السجن فنهض مسرعاً.

كان قد أحضر معه بعض المال كي يعطيه لبعض الحراس وفقاً لما يمليه عليه "باو دينج" ولكنه لم يفعل هذا ، ومن ثم اختار بنفسه بعض الحرس ليعطيهم بعض المال. استغرقت هذه العملية وقتاً طويلاً. وقف بعدها خارج أسوار السجن يدخن سيجارة. شعر بالإرهاق الشديد، فقرر العودة إلى غرفته؛ فلم يكن لديه سوي القليل من المال الذي يكفيه بالكاد لشراء تذكرة الأتوبيس.

ما إن وصل الأتوبيس عند كوبري "هانج تيان" حتى هبط الظلام. قرر أن يذهب إلى "تشي باو". حاول الاتصال بها ولكن تليفونها كان مُغلقاً، خَمَّنَ أنها ربما كانت نائمة. لم يكن تعريف الليل والنهار عند "تشي باو" هو وقت حلول الظلام أو شروق الشمس، بل هو متى تكون في حاجة إلى النوم. فإذا كانت في حاجة إلى النوم كان ذلك هو الليل بالنسبة لها، تغلق ستائر غرفتها نهاراً وتنام نوماً عميقاً. كانت كائناً فوضوياً صغيراً، تفعل ما يحلو لها بلا مبالاة. ذهب "دون هوانج" إلى بيتها وضغط على زر جرس الباب مرات عديدة ولكن لم يجبه أحد. قال في نفسه، "تلك اللعينة تنام كالأموات". استمر في الضغط على زر جرس الباب، وفي النهاية أجابه أحدهم. كانت زميلتها في السكن، فتاة نحيلة بساقين أشبه بعيدان الأكل، كانت "تشي باو" قد حدثته عنها واصفة إياها بأنها مثال للفتاة النحيلة الجميلة. شعر "دون هوانج" أن الوصف الأدق لهذه الفتاة هو أنها مثال للهيكل العظمي الجميل. فتاة نحيلة إلى هذا الحد ودائماً ما تحضر معها بعض الشبان إلى غرفتها. تساءل "دون هوانج"، "ما الذي يعجب هؤلاء الشبان في النوم مع هذه الكومة من العظام!".

سألت الفتاه بتهكم من خلف الباب:

- من هذا الذي يضغط على زر الجرس بهذه الطريقة؟

- أنا "دون هوانج".

غَيَّرَت من لهجتها المتهكمة قائلة:

- "تشي باو" غير موجودة.

- وأين هي إذن؟
- لا أعرف.. يمكنك أن تتصل بها.

قال "دون هوانج" في نفسه، "ما هذا الهراء، لو استطعت الاتصال بها لما جئت إلى هنا لأسألك". فكَّر ربما أنه قد أزعج هذه الفتاة بقدومه في هذا التوقيت واستمراره في الضغط على زر الباب بتلك الطريقة. لربما كانت تمارس الجنس مع أحدهم بالداخل، ومع استمراره في الضغط على زر الجرس، لم تجد مفراً من قطع العلاقة الجنسية مؤقتاً لتجيب على ذلك الشخص المزعج بالخارج.

شعر أنه لا فائدة من الانتظار، ومن ثم ذهب إلى أحد المتاجر القريبة واشترى علبة من الورق اللاصق ليستخدمه في لصق الإعلانات. غَيَّر من مضمون الإعلان هذه المرة واكتفى فقط بكتابة عبارة: "لدينا جميع الأسطوانات". انتهى من الكتابة على الورق اللاصق. أخذ يتجول في الأنحاء ليلصق إعلاناته. كان ينتقي الأماكن التي يصعب على عمَّال النظافة الوصول إليها، فهناك حملات لتنظيف المدينة من مثل هذه الملصقات الصغيرة. كانت عقارب الساعة تشير إلى التاسعة والنصف مساءً، حينما انتهى من لصق إعلاناته. حاول الاتصال بـ"تشي باو" ثانيةً ولكن تليفونها كان لا يزال مغلقاً. شعر بالجوع الشديد فذهب إلى مطعم "ما لان" لتناول بعض المكرونة. سار متمهلاً في طريقه إلى بيت "تشي باو" مرةً ثانية، ولكنها لم تكن قد عادت بعد.

لم تنزعج الفتاة النحيلة هذه المرة. فتحت له الباب وطلبت منه أن ينتظرها بالداخل قائلة إن "تشي باو" ربما تأتي بعد قليل.

قال "دون هوانج" إنه سوف ينتظر بالأسفل، فلم يكن يرغب في سماع صوتها وهي تمارس الجنس بالداخل. جلس على كرسي إسمنتي صغير داخل الحديقة الموجودة بالأسفل. ضم رأسه إلى ركبتيه في وضع القرفصاء، ولم تمر سوى دقيقتين حتى استغرق في النوم. استيقظ حوالي الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، ووجد "تشي باو" واقفة أمامه ورائحة الخمر تفوح من فمها. سألته قائلة:

– ماذا تفعل هنا؟

نهض "دون هوانج" واقفاً. بدا كمن أصابته القشعريرة. شعر ببركان من الغضب يكاد ينفجر داخله فقال لها:

– وأين يمكنني أن أذهب في رأيك؟

– أنا آسفة، لم أكن أعرف أنكِ ستأتي، فذهبت مع أصدقائي للتنزه.

– أي نوع من الأصدقاء هؤلاء الذين تتنزهين بصحبتهم حتى الواحدة بعد منتصف الليل.

– نشربُ سويًا.

ومدت يدها له قائلة:

– دعك من هذا، هيا بنا نصعد إلى غرفتي.

نظر "دون هوانج" إليها ثم أزاح يدها بعيداً عنه قائلاً:

– أنا لا أرغب في الذهاب معك.

– اخفض صوتك قليلاً، فالناس نائمون.

– ولماذا أُخفض صوتي؟

وصرخ بهيستيرية:

- لماذا تنامون أيها الناس، استيقظوا جميعاً أيها الملاعين.

بعدها توالت إضاءة بعض المصابيح تبعها فتح للنوافذ وأطل بعضهم قائلين:

- مَنْ هذا المجنون الأخرق الذي يصيح بتلك الطريقة في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟!

أشار إليهم "دون هوانج" بإصبعه قائلاً:

- بل أنتم المجانين.. اذهبوا إلى الجحيم.

جذبته "تشي باو" من يده قائلة:

- جُن جنونك، هيا معي.

أزاح يدها بعيداً وقال:

- لن أذهب معك.

واستدار بجسده مغادراً. أخذت "تشي باو" تنادي عليه ولكنه لم يعرها أي انتباه، بل أسرع في خطاه، حتى خرج إلى الشارع الرئيسي. همت "تشي باو" للحاق به وهي تقول: - "دون هوانج"، إن لم تتوقف عما تفعله سأقتلك!

توقف مكانه واستدار إليها قائلاً:

- أوكي، تعالي واقتليني إذن، اقتليني الآن.

سارت "تشي باو" نحوه. وقفت أمامه فوجدت الدموع تنهمر من عينيه. أخرجت منديلاً ورقياً من حقيبتها وأخذت تُجَفِّف دموعه وهي تقول:

- أعرف أنك مهموم بشأن "باو دينج"، وأنا اليوم كنت أتناول الطعام

بصحبة أصدقائي، وقد نفدت بطارية تليفوني مبكراً، أُقسم لك أن ما أقوله هو الحقيقة.

أشعل "دون هوانج" سيجارة، وقال لها:

- عودي إلى بيتك.

واستمر في طريقه. كان لا يعرف ما الذي كان سيفعله "باو دينج" لو كان هو المحبوس في السجن. أشعل سيجارة تلو الأخرى، وهو يرمي أعقاب السجائر في كل مكان حوله. ظلت "تشي باو" تلاحقه، وكلما رمى عقب سيجارة التقطته، وهكذا حتى وصلا عند كوبري "سوتشو". سارا بهذه الطريقة مدة تجاوزت الساعة. مكثت "تشي باو" في بكين سنوات عديدة ولم تمشِ على قدميها مثل هذه المدة من قبل. شعرت بألم في قدميها، ولم تعد قادرة على السير ولو لخطوة واحدة. أوقفت سيارة أجرة مرت بجوارها وطلبت من السائق أن يتوقف عند "دون هوانج" الذي كان يسبقها بمسافة قليلة.

- اصعد إلى السيارة.

فتحت له يدها لتريه ذلك الكم من أعقاب السجائر الذي التقطته وهي تقول:

- إن كنت تصر على أن تعاملني بتلك الطريقة فلتقطع علاقتك بي من الغد.

نظر "دون هوانج" إلى كومة أعقاب السجائر التي تحملها بيدها، وفتح الباب وصعد إلى السيارة.

16



هبَّت عاصفة رملية جديدة مع حلول شهر مايو. وأعلنت هيئة الأرصاد الجوية أن هذه من الحالات النادرة في تاريخ مدينة بكين. استمر هبوب العاصفة ليوم وليلة. غطى التراب كل شيء حتى الأفق نفسه. اضطرت النساء اللاتي يلبسن ملابس تظهر أنصاف صدورهن العلوية إلى ارتداء ملابس داخلية برقبة طويلة حتى لا يدخل التراب داخل ملابسهن، واضطر الرجال إلى رفع ياقات قمصانهم ولبس النظارات الشمسية. كان من النادر أن تشاهد مثل هذه المناظر في بكين في شهر مايو. توقفت العاصفة فجأة، ولم يكن هناك أي تقارير مسبقة عن هذا التوقف من قبل هيئات الأرصاد.ظل الغبار الدقيق مُعَلَقاً في الأفق، وبدا الجو مصفراً، وارتفع مؤشر نسبة التلوث بدرجة مخيفة. فيما حذَّرتْ النشرات الإخبارية من أن هذه الأجواء غير ملائمة للخروج في الشوارع. وقد التزم معظم السكان بهذه التعليمات. كان "دون هوانج" يخرج يومياً ويبحث عن مكان يختبئ فيه

من العاصفة ليبيع أسطواناته ولكنه لم يبع منها سوى عدد قليل.

عدم رواج بيع الأسطوانات يُعَد أمراً معتاداً وغير معتاد في الوقت نفسه. فقد تواترت أخبار أن الشرطة تلاحق بائعي الأسطوانات المقلدة، وكانت الأخبار صادقة هذه المرة. ذهب "دون هوانج" إلى قسم الشرطة وألقى نظرة على لوحة الإعلانات هناك. لم يجد تعليمات تفيد بأن بيع الأسطوانات المقلدة مخالف للقانون، ولكنه لم يجرؤ على المخاطرة، ولم يعد يقوم بلصق إعلاناته الصغيرة. منذ عدة أيام بينما كان يبيع أسطواناته، مر به شاب يحمل حقيبة على ظهرة يركض مسرعاً وهو يقول:

- اهرب يا "دون هوانج" فالشرطة آتية للقبض علينا.

كان "دون هوانج" يعرف هذا الشاب جيداً، فهو الآخر يبيع الأسطوانات المقلدة، وقد التقيا قبل ذلك وتجاذبا أطراف الحديث. صدَّقَّه "دون هوانج" ومن ثم جمع أسطواناته على عجل ودسها داخل حقيبته ثم حملها على ظهرة في ثوان معدودة. كان يجري أسرع من ذلك الشاب، ركض لمسافة حوالي ثمانمائة متر ثم نظر خلفه ولكن لم يكن هناك أحد من الشرطة يلاحقه، كما اختفى أثر ذلك الشاب أيضاً. أراد "دون هوانج" أن يعرف إذا ما كان هذا الشاب قد خدعه أم لا، ولكنه لم يعثر عليه بعد ذلك.

ظل يبيع أسطواناته بحذر، وكان قد مضى من الوقت أسبوع دون أن يشتري أحدٌ أسطوانات جديدة. بعدها زال الغبار العالق في الجو بواسطة المطر الصناعي، صفت الأجواء وازرقت السماء. أحصى "دون هوانج" ما

تبقى لديه من أسطوانات وشعر أن عليه أن يذهب إلى متجر "العالم" لشراء أسطوانات جديدة.

وقف "دون هوانج" أمام متجر العالم يحملق فيه. كل شيء كما كان في الماضي، إلا أن هناك شريطان متعاكسان ملصقان على الباب من قبل الشرطة مطبوع عليهما تاريخ الأمس. كان يقف حاملاً حقيبته ممسكاً بتليفونه يقلبه بيده. ظل يفكر هل عليه أن يتصل بـ"شياو رونج" أم "كوانج شان". في الأخير قرر أن يتصل بـ"كوانج شان". رد عليه "كوانج شان" بصوت مضطرب أشبه بصوت رجل عجوز، وما إن أدرك أن المتصل هو "دون هوانج" حتى هدأ قليلاً وقال له:

- "دون هوانج"، لقد انتهى أمري.

أخبره "كوانج شان" أنه خرج حالاً من قسم الشرطة، وقد دفعت "شياو رونج" كل مدخراتهما لتسديد كفالته حتى يخرج من السجن. قال له:

- لم أكن أتوقع أن تُدَاهِم الشرطة متجري في وضح النهار، بل إن أفراد الشرطة ما إن دخلوا المتجر حتى أزالوا الستار الخفي ودخلوا إلى المخزن الخلفي حيث توجد جميع الأسطوانات المقلدة. كنت قد اشتريت لتوي كمية من الأسطوانات المقلدة، ولولا سوء الأحوال الجوية في اليومين الماضيين لبيعت كلها بلا استثناء. كان أفراد الشرطة يستقلون شاحنة صغيرة مليئة بالأسطوانات المقلدة، فعلى ما يبدو أن متجر العالم ليس هو الأول الذي يداهمونه. وقد بدا من تصرفاتهم وكشفهم للستار الخفي بالداخل انهم على علم بمجريات الأمور داخل محال بيع الأسطوانات.

الأسطوانات الأصلية باهظة الثمن ولا يشتريها أحد، إذا لم نبع الأسطوانات المقلدة فكيف نكسب قوت يومنا! لحسن الحظ أن معظم الأسطوانات الخليعة موجودة في البيت أسفل السرير، والا ما كنت لأخرج من السجن حتى ولو بكفالة مالية. لقد احتجزوني أنا وشريكي السيد "تشو"، وقد خرجنا معاً ولكن بعدما دفعنا كل ما نمتلك من أموال.

سأله "دون هوانج":

- وماذا تنوي أن تفعل الآن؟

تنهد "كوانج شان" قائلاً:

- لا أعرف بعد، هل لديك وقت لنحتسي سوياً بعض الشراب؟

- نعم لديّ وقت، اخبرني كيف حال "شياو رونج"؟

- أفضل حالاً مقارنةً بي، لا أحد يفهم كيف تفكر النساء، في الماضي كانت دائماً ما تتحدث عن إدخار المال والعودة إلى مسقط رأسها، والآن أصبحتُ فقيراً معدماً، أما هي فلم تعد تتحدث بشأن المال، وكأنها جمعت هذا المال دون كد أو تعب. أنا فقط أشعر بالأسف تجاهها. اخبرني، هل أتيت اليوم لشراء أسطوانات جديدة؟

- نعم، فقد نفد ما لديّ من أسطوانات تقريباً.

- اذهب إلى السيد "فنج"، اخبره أنك قادم من عندي، ولا تخبر أحداً آخر بهذا الأمر.

ذهب "دون هوانج" إلى العنوان الذي أخبرها به "كوانج شان"، وجد متجراً اسمه "البجعة العملاقة". كان هناك رجل بلحية طويلة ينتظره

عند المدخل، قال له إن السيد "كوانج شان" أخبرهم بشأنه، وأنه سيصطحبه إلى متجر السيد "فنج". اصطحبه إلى مكان أشبه بجراج السيارات أسفل أحد المباني القريبة. سارا مخترقين بعض الردهات والأبواب الخلفية حتى وصلا إلى متجر السيد "فنج". كان المكان عبارة عن مقلب قمامة كبير إلا أنه ملئ بالأسطوانات التي تغطي الأرض بشكل كامل، والعاملين بالداخل يسيرون فوقها دون اكتراث. كان هذا هو أكثر مكان به أسطوانات رآه "دون هوانج" في حياته. تلال من الأسطوانات تغطي ما مساحته مائة متر مربع من الأرض. الوصف الأدق لهذا المكان هو أنه مصنع أسطوانات وليس متجر أسطوانات. شاهده ذو اللحية الكبيرة وقد بدا عليه الذهول فبادره قائلاً:

- هذا المكان ليس الأكبر، وهذه التشكيلة من الأسطوانات غير مكتملة، اختر منها ما يسد حاجتك.

أخذ "دون هوانج" ينتقي الأسطوانات بكميات كبيرة. في تلك الأثناء انتابه شعور بأنه ليس سوى مجرد بائع أسطوانات مثير للسخرية. ملأ حقيبة الظهر وحقيبة أمتعة أخرى كان قد أحضرها معه، وبينما كان يهم بالمغادرة حاملاً حقائبه، شعر بأنه مثير للسخرية بدرجة أكبر. حقيبتان ممتلئتان بالأسطوانات؛ ما يحمله ليس سوى ابرة في كومة قش. يبدو أن "كوانج شان" كان قد أُصيب هو الآخر بالذهول مما رآه ومن ثم قرر أن يكافح ليفتتح لنفسه متجراً للأسطوانات.

كانت الأسعار في هذا المتجر أقل من أسعار متجر "العالم"، وهو ما دفع "دون هوانج" للاستمرار في شراء الأسطوانات منه فيما بعد. لم يعد

"دون هوانج" يبيع الأسطوانات في الشارع بسبب ملاحقات الشرطة، بل كان يمر على أماكن تجمعات زبائنه القدامى بالتناوب، مثل سكن طلبة جامعة بكين، والمبنى الواقع بجوار كوبري "تشانج هونج"، وبعض أماكن عمل الموظفين وغيرها. وأحياناً يتصل ببعض الزبائن الذين دائماً ما كانوا يطلبون أسطوانات عن طريق التليفون. وإذا ما شعر بالتعب أو لم يكن هناك طلب على الأسطوانات، مكث في البيت يشاهد الأفلام أو يذهب لمرافقة "تشي باو". وأحياناً أخرى يذهب بصحبتها لتوصيل الهويات المزورة إلى الزبائن، فالأجواء أصبحت مضطربة أكثر من ذي قبل، و"تشي باو" دائماً ما تتصرف برعونة. العلاقة مع "تشي باو" لم تكن جيدة جداً أو سيئة جداً. عندما يكونان معاً تكون العلاقة على ما يرام، وعندما يفترقان لبعض الوقت تكون العلاقة فاترة. كانت "تشي باو" سعيدة بهذا الوضع، فهي لا تريد أن تجعل حياتها مرتبطة بشخص بعينه.

لم يذهب لتناول الشراب مع "كوانج شان" كما اتفقا مسبقاً، فلم يكن يريد الاستماع إلى شكواه. اتصل به "كوانج شان" في إحدى المرات يُخْبِرَه عن شدة سعادته وهو يرى "شياو رونج" تسير بجواره ببطنها الكبير، فيما رقد "دون هوانج" على سريره مُتخيلاً شكلها وهي تسير ببطنها الكبير، وهو ما جعله لا يرغب في رؤيتهما. وبعد عدة أيام استفاق "كوانج شان" من صدمته، وخرج بصحبة "شياو رونج" لبيع الأسطوانات. لقد قرر ألا يستسلم وأن يبدأ من جديد. في إحدى المرات كان "دون هوانج" مُتَجِهاً إلى جامعة الغابات لبيع الأسطوانات، ولكنه رأى "كوانج شان" عند المدخل فقرر أن يُغَيِّر وجهته.

لفترة طويلة من الوقت كان "دون هوانج" يشعر بالملل، فالجو أصبح حاراً وغير مريح سواء خرج لبيع الأسطوانات أم مكث في غرفته. الشمس حارقة والجو خانق بالخارج، أمَّا غرفته الصغيرة ذات الجدران المبنية من الطوب الفردي والسقف المغطى بالقرميد فقد كانت أشبه بالترمومتر الحراري. كلما ارتفعت درجة الحرارة بالخارج ارتفعت قراءة الترمومتر، وهو ما جعله يبدو مهموماً وكأن شيئاً ما على وشك الحدوث. وقد كان.

في الظهيرة بينما كان يشرب البيرة في مطعم صغير بالقرب من منطقة "وي شيو يوان"، اتصل به أحدهم يسأله أين هو، ولم يُفصح عن اسمه. أخبره "دون هوانج" أنه في مطعم "سي مِنْ للدجاج"، وأغلق المتصل التليفون. شعر "دون هوانج" بالقلق من هذه المكالمة، هَمَّ بدفع الحساب ومغادرة المكان إلا أن أحدهم استوقفه عند المدخل، ما إن نظر "دون هوانج" إلى هذا الشخص حتى تسمر مكانه فاتحاً فمه وهو يقول:

- "باو دينج".

ضحك "باو دينج" قائلاً:

- تريد الهرب.. أليس كذلك؟

- كدت تقتلني خوفاً. اعتقدت أن أحدهم قد غَرَّرَ بي.

ونادى على عاملة المطعم قائلاً:

- احضري لنا قائمة الطعام.

كانت عاملة المطعم قد نظفت لتوها ترابيزة الطعام التي كان "دون هوانج" يأكل عليها منذ قليل، ولوهلة لم تفهم ما يعنيه. نظر إليها "دون هوانج" وهي بتلك الحالة قائلاً:

–الم تسمعي ما قلت؟ احضري لنا قائمة الطعام وعشرة زجاجات من البيرة.

جلسا سوياً على الترابيزة وسأله "دون هوانج":

– لماذا لم تخبرني أنك خرجت من السجن؟

– لم أكن أتوقع خروجي بتلك السرعة.

وشرب زجاجة كاملة من البيرة دفعة واحدة وتجشأ بصوت عال ثم أردف:

– هل تذكر تلك المشاجرة التي حدثتك عنها المرة السابقة؟ لقد كنت أتشاجر نيابة عن أحدهم. شاب من منطقة "تشانج بين" غَرَّرَ بفتاة صغيرة حتى حملت منه، وتم القبض عليه وإلقاؤه معنا في السجن، أخوه الأكبر يعمل مسئولاً كبيراً، وتوسط له لإخراجه من السجن، وخرجت أنا الآخر بصحبته؛ حيث كان قد توسط لي لدى أخوه.

– أنت لا تلومني على ما حدث.. أليس كذلك؟

لكمه "باو دينج" بيده وقال:

– يا لك من غبي أحمق، كيف تفكر بهذه الطريقة؟ هؤلاء الناس من ذوو النفوذ، إخراج شخص أو اثنين من السجن بالنسبة لهم أمر بالغ السهولة، تجلس معهم على ترابيزة الخمر تحتسي نخبهم وينتهي الأمر. أما نحن فصعاليك مجهولون، إن متنا لن يكون لقبورنا شواهد محفور عليها أسماؤنا. كيف لي أن ألومك؟ لو كنت لألومك لما جئت إليك.

"دون هوانج" يعرف جيداً أن "باو دينج" ليس من النوع الذي يخدع أصدقاءه، ومن ثم فَكَّرَ بالأمر وكأن شيئاً لم يكن. طلب "باو دينج" بعض أصناف الطعام التي كان يشتهي تناولها منذ أن دخل السجن، وجلسا

يتبادلا أطراف الحديث.

ظل "باو دينج" يحكي لــ"دون هوانج" قائلاً:

- ذلك الشخص الذي تشاجرت معه من مقاطعة "هوبي"، وبالتأكيد تضاعفت عقوبته الآن بعد هذه المشاجرة. قال له إنه محظوظ لأنه وجد تلك الفرصة ليتشاجر مع ذلك الشخص نيابةً عن أخي ذلك الرجل ذي النفوذ، وإلا ما كان ليعرف ماذا ستؤول إليه الأمور في السجن بعد ذلك.

ظل يحكي له العديد من الأحداث الطريفة التي مر بها داخل السجن؛ منها بعض الأمور التي مر بها "دون هوانج" هو الآخر خلال مدة حبسه، ومنها ما شاهد أحداثاً مشابهة لها في الأفلام بل أكثر إضحاكاً منها. كقصة شاب معتوه يفكر في الانتحار، ولا يريد الانتحار سوى مشنوقاً، ولكن لا يوجد حبل داخل السجن، ومن ثم كان هذا الشاب يبحث داخل فراش الآخرين عن الشعر المتساقط، حيث ينوي أن يجمع كمية كبيرة من الشعر يغزل بها حبلاً ليشنق به نفسه. وشخص آخر هوايته جمع الحشرات النافقة، حيث ينوي بذلك أن يجمعها معاً ليرسم بها خريطة للعالم.

شربا خمس عشرة زجاجة من البيرة. بدا "باو دينج" وكأنه سَكِرَ بعض الشيء. وبينما كان "دون هوانج" يهم بدفع الحساب سأله "باو دينج" فجأة:

- وأين هي "تشي باو"؟

أجابه "دون هوانج":

- ربما ذهبت لتسليم بضاعة لأحد الزبائن، بعد قليل سأطلب منها أن

تأتي إلينا. اتصل بها "دون هوانج" ولكن تليفونها كان مغلقاً. قال لـ"باو دينج":

- لنعد إلى البيت ونستريح قليلاً ثم نتصل بها.

- فكرة صائبة، فقد بدأت أشعر بالدوار من هذه الخمر.



17



نام "باو دينج" في غرفة "دون هوانج" بقية اليوم ولم يستيقظ إلا مع غروب الشمس. لم يكن "دون هوانج" موجوداً، وكان هناك حذاء حريمي منزلي معلق به زوج من الأجراس أسفل السرير، حمله "باو دينج" بيده وأخذ يشم فيه لبعض الوقت، ثم ركل السرير بكعبه وجلس يدخن سيجارة. رجع "دون هوانج" إلى الغرفة قبل أن ينتهي "باو دينج" من تدخين سيجارته، وقد أحضر معه كومة من الملابس الجديدة إشتراها لـ"باو دينج". ملابس داخلية وخارجية وحذاء جلدي.

قال له "باو دينج":

– هل تظنني عريساً؟

– أنت دائماً تحب الاعتناء بمظهرك.

– أيها اللعين الصغير، أنا من كنت أقول لك هذا الكلام.

لم تكن صاحبة السكن موجودة، فطلب "دون هوانج" من "باو دينج" أن يستحم خارج الغرفة في العراء ويرتدي ملابسه الجديدة. انتهى "باو

دينج" من الاستحمام ولبس ملابسه الجديدة. حل الظلام. حينها شعر "باو دينج" بأنه لا يعرف نفسه وكأنه وُلِدَ من جديد، فقال في نفسه:

- اللعنة، ما أجمل الحرية.

ذهبا لتناول العشاء في الخارج، حيث دس "دون هوانج" خمسمائة يوان في جيب "باو دينج".

- ماذا تفعل بحق الجحيم!

- سأذهب الآن لتسليم بعض الأسطوانات لأحد الزبائن، اذهب انت لتتجول كما يحلو لك، وخذ هذا المال معك إذا احتجت إليه.

- اللعنة، أنت بهذا تُحَرِّضني على القيام بأفعال سيئة.

- أنا لم أقل ذلك.

بعد أن افترقا عاود "دون هوانج" الاتصال "بتشي باو"، ولكن تليفونها كان لا يزال مغلقاً.

وضع "باو دينج" يديه في جيوبه وسار متمايلاً لا يدري إلى أين يذهب. لم يتغير حي "هاي ديان"، كان هناك صف من السيارات يقف أمام الجيمانيزيم. الأغنياء يمارسون التمارين الرياضية بالداخل، وشباب يذهب لقاعات الكاريوكي للغناء، كل شيء كما كان. شعر بأن هذه الحرية جوفاء، لا يمكنه الاستمرار هكذا وعليه أن يجد ما يفعله. ركب الأتوبيس رقم 332 ونزل في نهاية الخط، محطة "سي تشي مِنْ". أخذ يتجول بلا هدف، فقد كانت الطرقات تعج بالناس، وهو ما جعله يفكر في حجم

السجن الذي قد يسع هذا الكم الهائل من البشر. ظل يسير مرة في طريق مستقيم ومرة في طرقات متعرجة، مرة في الجهة المعاكسة ومرة في الجهة الأخرى، وهكذا حتى وجد أمامه أحد الملاهي الليلة. ما إن نظر إلى أضواء النيون الساطعة في مدخل الملهى حتى ابتسم قائلاً:

- قلت إنك تحرضني على القيام بأعمال سيئة.

في الماضي كان "باو دينج" يرتاد هذا المكان تحديداً مرة أو مرتين كل شهر، فهو يعرف أن هذا المكان آمن.

مديرة الملهى سيدة جميلة، كانت لا تزال تعرفه، صافحته قائلة:

- لم أرك منذ وقت طويل، أين ذهبت طوال هذه المدة؟

ضحك "باو دينج" قائلاً:

- كنت مسافراً لبعض الوقت، وعدت حالاً.

- هل تحتاج لبعض من الراحة؟

- نعم، فأنا أشعر ببعض التعب.

- أوكي، سأوفر لك مكاناً ترتاح فيه لبعض الوقت.

وأشارت بيدها لأحد العاملين بالخلف إشارة معينة، فاصطحب "باو دينج" معه إلى الطابق العلوي. ما إن فتح العامل الباب حتى ظهر خلفه مجموعة من الفتيات يرتدين ملابس مثيرة ويحتسين بعض الشراب، أشار "باو دينج" إلى فتاة ترتدي أكثر الملابس إثارة قائلاً:

- أريد تلك الفتاة.

قال له العامل:

- هل أنت متأكد، أم تريد مزيداً من الوقت لتختار مرة ثانية؟

كرر "باو دينج" نفس العبارة السابقة قائلا:

- أريد تلك الفتاة.

ثم استدار بجسده متجهًا الى الغرفة التي سيستريح فيها.

تحسس النقود التي في جيبه. رقد على الأريكة وأشعل سيجارة، فهو يعرف جيداً أن من يأتون إلى هذا المكان لا بد أن يكون معهم مال كاف. أطلت الفتاة من خلف الباب قائلة ببراءة مصطنعة:

- هل يمكنني أن أدخل؟

أشار "باو دينج" بيده لها كي تدخل، وما إن جلست الفتاة حتى أطفأ سيجارته قائلاً: - اخلعى ملابسك.

قالت بذهول:

- بهذه السرعة؟

- أعرف أن هذا يبدو استعجالاً، ولكنك لو تعرضتِ للكبت أكثر من ستة أشهر لكنتِ في عجلة من أمرك مثلي.

مارس الجنس معها مرتين. عاد وأشعل سيجارته التي كان قد أطفأها. وبعدما انتهى من تدخينها رغب في الذهاب إلى دورة المياه، ولكن لأن هذه الغرفة ليس بها دورة مياه، كان عليه الذهاب إلى تلك الموجودة بالخارج. هَمَّ بمغادرة الفراش وقد طلب من الفتاة أن تنتظره فهو لم يكتفي بعد. بعدما سمعت الفتاة هذه الكلمات كادت أن تبكي.

بعد أن انتهى من التبول هَمَّ بغسل يديه في الحوض خارج دورة المياه

حيث شاهد إحدى الفتيات قادمة نحو حوض غسيل الأيدي بجواره وأخذت تتقيأ. كان هناك رجل ينتظرها بالخارج ويطلب منها أن تُسرع. سمع الفتاة تقول:

- أنا قادمة.

نظر "باو دينج" في المرآة أمامه فرأى انعكاس وجه الفتاة. كانت "تشي باو"!

رجع بسرعة إلى الخلف ودخل إلى دورة المياه ثانيةً. بعدما انتهت "تشي باو" من غسل يديها دخلت إلى دورة المياه الخاصة بالسيدات، بينما انتظر هو داخل دورة المياه الخاصة بالرجال حتى خرجت. رآها بوضوح هذه المرة، نعم هي "تشي باو" بلا أدنى شك. غسلت يديها مرة ثانيةً وجففتها. غادرت دورة المياه فوضع ذلك الرجل الذي كان ينتظرها بالخارج يده على كتفها. سارا سوياً بينما كان الرجل يتحسس بيده جسدها وصولاً إلى مؤخرتها. دخلا معاً إلى إحدى الغرف وأغلقا الباب.

ساءت حالته النفسية فجأة. رجع إلى الغرفة مرة ثانية وخلع بنطلونه، فطلبت منه الفتاة أن يتمهل قليلاً. كان مظهرها يُوحي بأنها تجاوزت العشرين بقليل. أخذ "باو دينج" يحملق فيها، بينما كانت تختبئ خلف الغطاء خائفة. خلعت سروالها الداخلي الرفيع ووضعته بجانبها. استدار "باو دينج" بجسده وارتدى بنطلونه ثانيةً وهَمَّ بمغادرة الغرفة. أخرج من جيبه مئة يوان ووضعها فوق سروالها الداخلي.

رجع "باو دينج" إلى غرفته بعد منتصف الليل. كان "دون هوانج" بالداخل يشاهد بعض الأفلام، وما إن دخل "باو دينج" حتى نهض قائلاً:

- انتظرتك طويلاً حتى اعتقدت أنك لن ترجع الليلة.

ركله "باو دينج" بقدمه ركلة أطاحت به فأجلسته على السرير. أشار له بيده وهو يرمقه بعينين حمراوين قائلاً:

- لم يكفك ممارسة الجنس معها بل وصل بك الحد إلى أن تتركها تمارس الجنس مع الآخرين! يا لك من وغد جبان!

نهض "دون هوانج" قائلاً بلهجة مرتابة:

- هل تقصد "تشي باو"؟

ركله "باو دينج" بقدمه ركلةً ثانيةً أجلسته مكانه مرةً أخرى وقال:

- لا تحاول خداعي أيها اللعين، فهي الآن بمثابة زوجتك.

نهض "دون هوانج" ثانيةً مُحَاوِلاً لكم "باو دينج" بيده وهو يقول:

- عليك أن تُوضح لي الآن ما الذي تقصده تحديداً، ماذا حدث لـ"تشي باو"؟

- "تشي باو" تعمل مومسًا في أحد الملاهي الليلية.

وجلس على الكرسي مُنهكاً.

- تكلَّم بوضوح أكثر.

- رأيتها بعيني، وأنا متأكد من هذا، إن لم تكن هي فمن تكون؟ أختها التوأم؟

أمسك "دون هوانج" بتليفونه واتصل بها، كان لا يزال مغلقاً.

نهض "دون هوانج" من فوره وهَمَّ بارتداء ملابسه ليذهب إليها،

حاول "باو دينج" منعه طالباً منه أن ينتظر للصباح ولكنه أزاحه بيده بعيداً عن طريقه قائلاً:

- لا علاقة لك بهذا الأمر.

ركب "دون هوانج" سيارة أجرة متجهاً إلى "هوا يوان تسون" حيث تسكن "تشي باو". طرق الباب مرات عديدة ولكن لم يرد عليه أحد، ولم تكن زميلتها في السكن هي الأخرى موجودة. ومن ثم جلس بالأسفل ينتظرها. غلبه النوم، نام واستيقظ، ثم نام واستيقظ مجددًا حتى غطته قطرات الندى. ظل هكذا حتى الخامسة وعشرة دقائق فجراً حينما شاهد "تشي باو" عائدة تحمل حقيبتها الصغيرة على كتفها. عندما رأت "دون هوانج" وهو يجلس بتلك الحالة وقطرات الندى تغطي ملابسه وشعره، حاولت أن تعدِّل من ملابسها بطريقة لا شعورية.

ما إن وقفت أمامه حتى سألها والشرر يتطاير من عينيه:

- منذ متى وأنتِ تمارسين هذه المهنة؟

- أي مهنة تقصد؟

لم يتمالك "دون هوانج" نفسه فصفعها بيده على خدها الأيمن.

أصابها الذهول مما فعل فبادلته بصفعة على وجهه قائلة:

- وما الذي يعنيك بهذا الأمر!

- بعد كل ما حدث بيننا وتسألينني ما الذي يعنيني بهذا الأمر، أنتِ الآن بمثابة زوجتي.

صفعها على وجهها صفعة أقوى من سابقتها.

بادلته الصفعة بشكل سريع، قائلة:

- ومن قال إني زوجتك؟ رئيس الدولة هو من قال ذلك، أم أنني بعت نفسي لك مقابل المال؟

صفعها "دون هوانج" صفعةً ثالثةً قائلاً:

- لقد وصلت بك الوقاحة إلى أقصى حدودها.

جاءت الصفعة التالية أسرع من سابقتها. صرخت قائلة:

- أنا وقحة؟ وماذا عنكم أنتم أيها الرجال؟ أين كان ماء وجوهكم وأنتم تمارسون الجنس معي؟ أنت و"باو دينج" و"كوانج شان"؟

- هل مارست الجنس مع "كوانج شان" هو الآخر؟

- معكم كلكم، ما الفارق بينكم؟

منذ عام تقريباً كان "كوانج شان" قد ذهب إلى أحد الملاهي الليلية حيث كانت تعمل "تشي باو" واختارها ليمارس الجنس معها، ومن ثم تعرفا على بعضهما البعض. وفي تلك الليلة التي دعا "دون هوانج" فيها "كوانج شان" و"شياو رونج" لتناول العشاء بصحبته هو و"تشي باو". بعدها غادر "كوانج شان" المطعم بينما كانوا يتناولون الطعام واتصل بـ"تشي باو" يطلب منها أن تذهب معه بعد تناول العشاء ولكنها رفضت في البداية. ثم وافقت بعد إلحاحه وتعهده لها أنه لن يُخبر "دون هوانج".

وقف السكان الذين استيقظوا مبكراً في بلكوناتهم يتفرجون على هذا المشهد مسرورين. شاب وفتاة يتبادلان الصفعات، وفي النهاية أشاح الشاب بيده مُغادراً. بالطبع لم يسمع هؤلاء السكان "دون هوانج" وهو

يقول لها وهو يغادر:

- انتهى كل شيء بيني وبينك.



18



ظل "دون هوانج" يبيع الأسطوانات المقلدة، وانقطعت علاقته بـ"تشي باو". ونادراً ما كان يرى "شياو رونج" تبيع الأسطوانات على جانب الطريق أو أمام مداخل المتاجر. صارت بطنها كبيرة بشكل ملفت، ربما كانت حاملاً في توأم. لو كان ذلك صحيحاً فمن منهما سيطلق عليه اسم "كوانج شيا"؟

كانت "شياو رونج" تضع أمامها حقيبة صغيرة بداخلها الأسطوانات، وعادةً ما تلتفت يميناً ويساراً وهي تتحدث إلى الزبائن. أما "كوانج شان" فكان يجلس في مكان بعيد يدخن السجائر كشخص عاطل عن العمل واضعاً أمامه حقيبة بقفل سري. هذا اللعين صار خائفاً من ملاحقات الشرطة وأصبح يحتمي خلف "شياو رونج".

أما "باو دينج" فقد مكث في غرفة "دون هوانج" مدة يومين ثم استأجر لنفسه غرفة بالقرب من منطقة "ما ديان"، وظل يمارس مهنة تزوير الأوراق. أعطاه "دون هوانج" ألف وخمسمائة يوان هي كل ما ادخره، لم يتردد "باو دينج" في قبول المال، إلا أنه أوصى "دون هوانج"

بألا يفكر فيما حدث، فكل شيء وارد الحدوث في مدينة كبيرة مثل بكين.

صار إيقاع الحياة بسيطاً، ورَكَّزَ "دون هوانج" على بيع ومشاهدة الأسطوانات وجني المال. بحث عن زبائن جدد وصارت تجارته أفضل بمرور الوقت، والأهم من ذلك أنه ظل بعيداً عن أعين الشرطة. فقد عمل بنصيحة "باو دينج" الذي أخبره أن دخول السجن بمثابة العودة لنقطة الصفر.

بعد عودته إلى غرفته كل ليلة كان "دون هوانج" يستلقي على فراشه يفكر في "تشي باو" و"شياو رونج"، دقائق ثم ينهض ويشاهد بعض الأفلام. أحياناً كان يركز مع بطلات الفيلم بحثاً عن نقاط تشابه بينهن وبين "تشي باو" أو "شياو رونج". حينها يسب نفسه لعدم قدرته على نسيانهما وتفكيره الدائم بهما.

في فجر أحد الأيام، استيقظ على صوت رنين تليفونه. كان الفيلم الذي يشاهده قبل نومه قد انتهي واصطبغت شاشة التليفزيون باللون الأزرق. كان رقماً غير مسجل لديه، ما إن أجاب على التليفون حتى سمع صوت فتاة تقول إن "تشي باو" قد ألقى القبض عليها، سألها "دون هوانج" من تكون، إلا أنها لم تخبره، فقط أخبرته أن "تشي باو" قد أُلقى القبض عليها برفقة بعض زميلاتها في العمل. سألها "دون هوانج" ملهوفاً:

- وكم هي الكفالة المطلوبة لإخراجها؟

أجابته الفتاة:

- حوالي خمسة آلاف تقريباً.

حدث ما كان يخشاه. بعدما أغلقت الفتاة التليفون؛ تَذكَّر "دون هوانج" أن هذا الصوت هو صوت الفتاة النحيلة زميلة "تشي باو" في السكن. كان عليه أن يعرف أنهما زملاء في المهنة منذ البداية، وعلى ما يبدو أنها نجحت في تفادي ضربة الشرطة.

خمسة آلاف! يُعد هذا رقماً فلكياً بالنسبة لـ"دون هوانج". اتصل بـ"باو دينج" على الفور فوجد تليفونه مغلقاً. ركب سيارة أجرة وذهب إليه مباشرةً. كان "باو دينج" نائماً، أيقظه وأخبره أنه في حاجه للمال، ما إن سمع "باو دينج" ذلك حتى فهم أن الأمر يتعلق بـ"تشي باو". طلب "باو دينج" منه أن يعود إلى بيته قائلاً إنه سيذهب الآن ليرى كم من المال يمكنه أن يقترض من أصدقائه، فالتأخير ليس في صالح "تشي باو". لم يرجع "دون هوانج" إلى بيته بل ذهب إلى منطقة "فو رونج لي" حيث تقطن "شياو رونج" وزوجها "كوانج شان". سألته "شياو رونج" عمَّا حدث؟ لم يخبرها، فقط أخبرها أنه في حاجة ملحة للمال فوراً. أراد "كوانج شان" أن يُلِّح في سؤاله عمَّا حدث، ولكن "دون هوانج" نظر إليه بطريقة جعلته يتراجع عن سؤاله.

قالت "شياو رونج" لـ"كوانج شان":

- أين الألف وسبعمائة يوان التي تحتفظ بها؟ أعطها لـ"دون هوانج".

قال "كوانج شان":

- هذا المبلغ سأدفعه غداً لشراء أسطوانات جديدة.

- وما الذي سيحدث لو تأخرت في شراء الأسطوانات الجديدة يومين أو ثلاثة؟

كان "دون هوانج" يرمقه بنظرة غاضبة وكأنه يتأهب للكمه في وجهه. أخرج "كوانج شان" النقود من الخزانة. أعطاها لـ"دون هوانج" على مضض. لم يعره "دون هوانج" أي انتباه، أخذ المال وبينما كان يغادر المكان نظر إلى "شياو رونج" قائلاً:

- شكراً.

بحلول السابعة صباحاً، نجح هو و"باو دينج" في جمع ستة آلاف وثلاثمائة يوان. ركبا سيارة أجرة قاصدين قسم الشرطة. حيث طُلب منهما الجلوس في قاعة الانتظار. انتظرا حتى تم الانتهاء من استجواب جميع الموقوفين. قال "باو دينج" للشرطي المسؤول إنهما قدما من مكان بعيد ويأملان في أن ينتهيا من إجراءات دفع الكفالة بسرعة. قال الشرطي:

- أعرف هذا، جميعكم قدمتم من مكان بعيد، نحن أيضاً لا نرغب في أن نطيل من وقت الإجراءات. لا مجال لتقليل مبلغ الكفالة، خمسة آلاف كاملة. وهم يعرفون جيداً أنه بمجرد دفع الكفالة يمكنهم إخراجها من مكان الاحتجاز.

لذا اتخذا قرارهما بدفع المبلغ كاملاً. كانت الإجراءات روتينية بطيئة، ساعد "باو دينج" "دون هوانج" في عمل كافة الإجراءات وبقي أن تخرج "تشي باو" من الحجز لتغادر برفقتهما، حينها قال "باو دينج" إنه مشغول وعليه أن يغادر الآن.

وقف "دون هوانج" عند المدخل. رأى "تشي باو" تخرج بصحبة أحد أفراد الشرطة. شعرها منكوش وتحني رأسها نظرة للأسفل. ظلت تنظر للأسفل حتى وصلت أمام "دون هوانج". والذي مد يده وأمسك بخصلة شعرها المتدلية أمام جبهتها ووضعها خلف أذنها، ثم وضع يده على كتفها قائلاً:

- هيا معي.

لم ينطق أي منهما بكلمة طوال الطريق. وصلا إلى "هوا يوان تسون"، فتحت لهما الفتاة النحيلة الباب ودخلت إلى غرفتها دون أن تتحدث معهما. استلقت "تشي باو" على فراشها وأشعلت سيجارة من نوع "تشونج نان هاي"، انتزعها "دون هوانج" من يدها وألقاها من النافذة وقال منفعلاً:

- المال، المال، لماذا تسعين لجني الكثير من المال؟ هل سيدفن معك هذا المال؟ هل المال أهم من حياتك؟

- وكيف أعيش بدون المال؟

- إن لم تستطيعي العيش هنا بدون المال، يمكنك مغادرة هذا المكان والعودة إلى بيتك، لماذا تتمسكين بالعيش هنا؟

ودخل كلاهما في صمت مطبق قطعه صوت صادر من غرفة الفتاة النحيلة، ولكنه لم يكن صوتها بل صوت رجل موجود بالداخل.

- سننتقل سوياً من هذا المكان للعيش في مكان آخر، هذا كلام نهائي.

في اليوم التالي انتقلا إلى شقة صغيرة استأجراها بسعر مناسب في

منطقة "مو دان يوان" بالقرب من "بي تاي بينج تشوانج". دفعت "تشي باو" المال الذي ادخرته لسداد المبلغ الذي كان "دون هوانج" و"باو دينج" قد اقترضاه لدفع كفالتها. بعد أن انتهيا من ترتيب مسكنهما الجديد، قامت "تشي باو" بدعوة "باو دينج" لتناول الطعام معهما في بيتهما الجديد، تجوَّل "باو دينج" في شقتهما الجديدة وعَبَّرَ لهما عن إعجابه بها.

دارت عجلة الأيام، عاشا سويا يكسبان ما يسد حاجتهما، فالحياة الرغيدة في مدينة بكين ليست بالأمر اليسير، والموت جوعاً ليس بالأمر العسير. اتفقا على الإنجاب، وما داما متفقان على ذلك فمن الأفضل التعجيل بالإنجاب!

حَلَّ شهر يونيو، وسيتبعه شهري يوليو وأغسطس، حيث تكون حرارة الجو على أشدها في بكين. ثم يأخذ الجو في التلطف بعد ذلك تدريجياً. في أغسطس سيبلغ "دون هوانج" السادسة والعشرين، وستبلغ "تشي باو" الرابعة والعشرين، فقد وُلدا في الشهر نفسه والفارق بين عيدي ميلادهما يوم واحد. اختارا ذلك اليوم الفاصل بين عيدي ميلاديهما واشتريا تورتة صغيرة اقتسماها مناصفة، وطهت "تشي باو" عدة أصناف من الطعام واحتسيا بضع زجاجات من البيرة وكان هذا هو احتفالهما بعيد ميلادهما.

قال لها "دون هوانج":

- لو أضفتِ عمري إلى عمرك لتخطى الناتج المتوسط العمري الذي يعيشه الإنسان.

ضحكت "تشي باو" قائلة:

- انظر إلى جسدك الضئيل، بالكاد تستطيع ممارسة الجنس حتى النهاية، أرى أنك قد تخطيت المتوسط العمري للإنسان بكثير.

- ذلك لا يهم، المهم هو أننا نقضي أيامنا سوياً في سعادة.

كان أغسطس شهراً رائعاً بالنسبة لهم. راجت تجارتهم سواء الأسطوانات المقلدة أو الهويات المزيفة. اكتشف "دون هوانج" أن الأفلام الخليعة والإباحية تكون أكثر رواجاً في هذا الوقت. مازح "دون هوانج" "تشي باو" قائلاً:

- صار الجو معتدلاً، وعلى ما يبدو أن الشباب والفتيات يكونون أكثر إقبالاً على الجنس في هذه الفترة من العام.

كانا يرقدان على الفراش حين قال "دون هوانج" هذه الكلمات، حيث مالت "تشي باو" بجسدها فوقه قائلة:

- اسأل نفسك وستعرف الإجابة.

- يا إلهي، إنكِ تفيضين كالطوفان.

في ظهيرة أحد الأيام بينما كان "دون هوانج" يبيع أسطواناته سمع أحدهم ينادي عليه، التفت فوجد "كوانج شان" يحمل في يده اليسرى حقيبة الأسطوانات الخاصة بـ"شياو رونج"، وفي يده اليمني الحقيبة الصغيرة ذات الأرقام السرية، بينما كانت "شياو رونج" تسير خلفه ببطنها الكبير. صافح كل منهما الآخر. فتح "كوانج شان" حقيبة

الأسطوانات الخاصة بـ"شياو رونج" ووضعها على الأرض بجانب "دون هوانج" قائلاً:

- سوف نجاورك اليوم.

سألته "شياو رونج" عن أحوال "تشي باو"، فأجابها:

- لا جديد، هي لا تزال تعمل في مهنة تزوير الأوراق، وماذا عنكما؟

قالت "شياو رونج":

- قمنا بإجراءات تسجيل زواجنا منذ يومين. قام أحد أصدقاء "كوانج شان" بمساعدتنا في عمل إجراءات التسجيل.

- لقد صرتما زوجين رسمياً، تهانئي لكما، لماذا لم تخبراني حتى نحتفل سوياً.

قالت "شياو رونج":

- نحن زوجان قديمان، فقط كان ينقصنا تسجيل الزواج رسمياً، لا داعي للاحتفال.

تحسس "كوانج شان" بطن "شياو رونج" قائلاً:

- هذا صحيح، أنا على وشك أن أكون أباً.

ضربته "شياو رونج" على يده وأخذت تتحسس بطنها بيدها وهي مبتهجة، تهللت أساريرها وظهرت غمازات خديها في تلك الأثناء، فلم تكن قد أنجبت طفلها الذي سوف تسميه "كوانج شيا" بعد، إلا أنها كانت تتقمص دور الأم ببراعة شديدة.

بينما كان "دون هوانج" يقلب أسطواناته سمع صوت رنين تليفون "كوانج شان". التقط "كوانج شان" التليفون وأخبر المتصل أنه وصل

المكان المتفق عليه. بعد خمس دقائق تقريباً جاء شابان يلبسان بنطلونات فضفاضة وقد صبغا شعرهما باللون الأحمر. أشار لهما "كوانج شان" بيده ثم نظر إلى "دون هوانج" ضاحكاً وهو يقول:

- سأغادر قليلاً، لديّ بعض العمل لأقوم به.

اصطحب "كوانج شان" الشابين ذوي الشعر المصبوغ بعيداً ثم توقفوا أسفل شجرة الصنوبر الواقعة على بعد أمتار قليلة. كان بجانبهم موقع عمل لعمال حفر مترو الأنفاق، وبعض الحواجز المصنوعة من الألواح المعدنية، وكومة مبعثرة من التراب الناتج عن الحفر، وطريق صغير يمر إلى الجانب الآخر من الشارع. عرف "دون هوانج" أن "كوانج شان" قد اصطاد زبائن جُدد، وتظاهر بعدم الاهتمام، إلا أنه كان ينظر إليهم بطرف عينه فرأى "كوانج شان" جالساً في وضع القرفصاء يفتح حقيبته ذات الأرقام السرية. والشابان بجواره يقلبان الأسطوانات الموجودة داخل الحقيبة. قام "كوانج شان" بإغلاق الحقيبة وشرعوا يتهامسون لبعض الوقت.

شعرت "شياو رونج" بالقلق. سألت "دون هوانج":

- ماذا يفعلون كل هذا الوقت؟

- لا بد من أنهم يتشاورون حول السعر.

وبينما هما كذلك، ظهر شرطيان من خلف الحواجز المعدنية. أسرع "دون هوانج" بجمع بضاعته داخل الحقيبة، وهرع يساعد "شياو رونج" في جمع بضاعتها وهو يقول: - هيا بنا نغادر هذا المكان بسرعة.

لوهلة لم تستوعب "شياو رونج" ما يحدث، صارت تتلفت يميناً ويساراً لتجد هذين الشرطيين يركضان نحو "كوانج شان" وهما يصيحان:

- قفوا مكانكم، لا أحد يتحرك.

فر الشابان ذوو الشعر المصبوغ هاربين، فيما نجح الشرطيان في القبض على "كوانج شان".

أصيبت "شياو رونج" بالذهول، كانت تضع يداً على بطنها وتشير باليد الأخرى نحو "كوانج شان" بينما تنظر إلى "دون هوانج" وتقول:

- "كوانج شان"، اسرع يا "دون هوانج"، اسرع، "كوانج شان".

بدت كمن أصابها الهلع، وظهرت على وجهها تعابير معقدة ومشاعر مختلطة من الخوف والفزع لم يسبق لـ"دون هوانج" أن رأى مثلها من قبل، ظلت تصرخ وتقول:

- أسرع يا "دون هوانج"، أرجوك.

هرع "دون هوانج" نحو "كوانج شان"، حيث سقطت حقيبته على الأرض. اندفع بجسده نحو الشرطيين وهو يصرخ قائلاً:

- ابعدوا أيديكم عن أسطواناتي.

واختطف حقيبة "كوانج شان" ذات الأرقام السرية من أيدي الشرطيين وشرع في الهرب نحو الطريق الصغير الذي يمر نحو الجانب الآخر من الشارع. كان يجري ويصيح:

- أسطواناتي، أسطواناتي.

لم يتوقع الشرطيان أن يأتي أحدهم بهذه الطريقة ليفسد عليهما

خطتهما. تركا "كوانج شان" وشرعا يلاحقان "دون هوانج". ظل "دون هوانج" يركض بكل ما أُوتي من قوة حاملاً حقيبة "كوانج شان"، بينما كان الشرطيان يلاحقانه ويصرخان فيه قائلين:

- توقف مكانك.

ولكن "دون هوانج" كان يسرع في الركض، ظل يركض من شارع إلى آخر حتى رجع إلى المكان الذي كانت تقف فيه "شياو رونج"، حيث رآها تجلس على الأرض والدم يسيل من بين رجليها، وقد أحاط بها بعض المارة يساعدونها على النهوض. لم يرَ أثراً لـ"كوانج شان" الذي كان قد هرب بدوره. أصابه منظر "شياو رونج" بالذهول، حاول أن يجري نحوها إلا أن قدمه ارتطمت بالحقيبة التي كان يحملها في يده فتعثر وسقط على الأرض من شدة الإرهاق. انفتحت الحقيبة وتبعثرت الأسطوانات التي كانت داخلها على الأرض، وسمع أصوات المارة الذين كانوا قد أحاطوا به يصيحون بدهشة:

- يا للهول.

نظر إلى الأسطوانات المبعثرة على الأرض حوله، فكان كل ما شاهده على أغلفة هذه الأسطوانات هو سيقان بيضاء عارية وصدور بيضاء ممتلئة.

لحق به الشرطيان في تلك الأثناء. رن جرس تليفونه. كانت نغمة الرنين التي خصصها لـ"تشي باو". تحسس الأرض بيده يميناً ويساراً بحثاً عن تليفونه، ثم التقطه وضغط على زر الإجابة. سمع "تشي باو" تصيح مازحة بصوتٍ عالٍ:

- "دون هوانج" أيها اللعين، أنا حامل، وموجودة الآن في المستشفى لعمل فحوصات.. سوف أقتلك.

قام الشرطيان برفع يديه للأعلى، ووضعاهما بعد ذلك في الأصفاد، حيث تزامن صوت إغلاقهما مع صوت إغلاق التليفون.

2006-5-28

فو رونج لي – بكين

